كتاب

١

نيكوس كازانتزاكيس

رحلة إلى مصر

الوادي وسيناء



ترجمة: محمد الظاهر / منية سمارة

كتاب

أدب ونقد

سلسلة فصلية

تعنى بالابداع المتميز والمعرفة

التقدمية الجديدة

تصدرها مجلة «أدب ونقد»

حزب التجمع الوطنى

التقدمى

الوحدوى

[1]

رحلة إلى مصر
(الوادي وسيناء)
تأليف: نيكوس كازانتزاكيس
ترجمة: محمد الظاهر ومنية سمارة
سلسلة كتاب أدب ونقد
الكتاب الأول
الطبعة الأولى/ شتاء ١٩٩١
٢٣ ش عبد الخالق ثروت/ القاهرة/ مصر
ت: ٣٩٣٩١١٤/٣٩٢٢٣٠٦/٣٩٢٢٤٠٨

رحلة إلى مصر
(الوادى وسيناء)

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة

محمد الظاهر

منية سمارة

تقديم

«كتاب أدب ونقد»:

حلم يتحقق

فريدة النقاش

«كتاب أدب ونقد» حلم قديم من أحلامنا الكثيرة الطموحة وقف عجزنا المالى فى طريقه كما وقف دائما فى طريق أحلامنا. فنحن نعيش في زمن ردىء بكل المقاييس تحكمنا فيه رأسمالية هشة وتابعة تستورد لنا كل أزمات المجتمع الرأسمالى المتقدم والمهيمن عالميا، دون الوفرة فيه.. وهكذا أصبح الحد الأدنى لاقامة أى مشروع ثقافي جدى قادر على أن يغطى تكلفته ويواصل النمو، متزايدا كل يوم بصورة تتجاوز كل رغباتنا المخلصة فى العطاء، وكل قدرات أصدقائنا وقرائنا على التبرع.

وضعنا تصوراتنا عن طبيعة السلسلة والدور المرجو لها أكثر من مرة فى مجلس تحرير مجلتنا «أدب ونقد»، وفى كل مرة كنا نتبين بصورة أكثر جلاء أن ماننشده ليس إضافة كمية للسلاسل القائمة، وكتبنا ذلك فى إفتتاحيات المجلة كلما وجدنا أنفسنا أمام مبدع جديد نريد أن نقدمه ونحتفى به على نطاق واسع مثلما كان الحال مع الروائى «أحمد زغلول الشيطى» الذى إضطررنا لنشر روايته الهامة «ورود سامة لصقر» فى عدد من المجلة وكنا نتمنى أن ننشرها فى كتاب مستقل. ورواية أخرى لم تنشرها بعد لرضا البهات هى «رائحة اليوسفى»، وحدث نفس الشيىء مع الشاعر أحمد أبو زيد الذى إخترنا له قصيدتين من ديوانه- غير المنشور- لعددنا الخاص بالشعر، إذ وجدنا فيه صوتا خاصا واعدا لن يكتمل إلا مع النشر الواسع للتعرف الحقيقى على عمله، ومن المؤكد أن هناك كثيرين آخرين لانعرفهم ويستحقون أكثر.

ظل مشروعنا على ماهو عليه، حلما ينبعث كلما وجدنا أنفسنا أمام عمل جديد نود أن نحتفى به وننشره، إلى أن قرأ الأديب العراقى المهاجر لأمريكا «محمد رستم» واحدة من افتتاحيات «أدب ونقد» التى تتحدث عن مشروع الكتاب. وفى زيارة لمصر عرض مشكوراً أن يدفع تكلفة الكتاب الأول إى أن تقسيم السلسلة فنرد له أمواله، وفى حالة تعثرها يعتبر إسهامه تبرعا،

فى نفس الوقت قدم لنا الباحث والشاعر الفلسطينى محمد الظاهر ترجمته لهذا الكتاب الذى بين أيديكم لكازنتزاكيس ومعها مبلغ من المال، فقط لأنه يريد أن ينشر ترجمته فى مصر. فأصبحنا نقف حاليا على أرض معقولة لكى نبدأ..

هل أنتم معنيون بمثل هذه التفصيلات أم بالكتاب نفسه.. وتحديدا بالبداية؟ نحن نود من كل قلوبنا أن تعتبروا أنفسكم طرفا معنيا كل العناية بحلمنا الذى هو ببساطة الإسهام بصورة جديدة ومنظمة فى انشاء مكتبه أدبية فكرية تقدمية وشعبية فى آن واحد على أن يكون العنصر الأخير.. أى الشعبى أساسيا فيها..

صحيح أن هناك سلاسل شعبية تباع ربما بأقل من سعر التكلفة، مثل مختارات فصول وإشراقات أدبية وكتاب الثقافة الجماهيرية.. لكننا كما سبق القول لانخطط لكى تصبح سلسلتنا إضافة كمية فقط، وإنما إضافة نوعية أيضاً. فهناك مواد أساسية وأمهات كتب فى ميدانى النقد والفكر يطمح «كتاب أدب ونقد» إلى تقديمها بالمواصفات السابقة، إضافة للابداع الجديد الجرىء فنيا وسياسيا شأن رواية الشيطى التى رفضتها مختارات فصول بسبب مضمونها السياسى الواضح والذى جرت معالجته بأرقى صورة فنية حتى أن حركة النقد الجدية تؤرخ بها لولادة رواية جديدة تماما.

كذلك تتواصل الدراسات النقدية فى ميادين علم إجتماع الأدب واللغويات وعلم الجمال الماركسى، ومايزال مايصلنا منها جزئيا ومبعثرا بينما تغيب جل الكتابات الأساسية فى هذه الميادين عن النشر الشعبى الواسع.

ونحن نعتقد أن مثل هذا النشر الذى نطمح اليه سوف يشجع مئات الباحثين الذين يستخدمون المنهج العلمى الموضوعى المادى التاريخى أى التكاملى بالضرورة وبطبيعته، يشجعهم على تقديم إضافاتهم عن تاريخ

الأدب وأجناسه وتطور الشكل والنقد التطبيقى ..الخ، فى الأدبين المصرى والعربى مسترشدين بما نقدمه من أمهات النصوص وحتى من بعض الكلاسيكيات التقدمية فى الأدب والنقد والفكر والتى لم تنشر أبدا نشرا شعبيا ،يجعلها فى متناول قدرة جمهرة القراء البسطاء، ويجعلنا قادرين على الاستمرار معا.

* * *

أما كتابنا هذا الذى ينشر بالعربية لاول مرة رغم الانتشار الواسع لأعمال هذا الروائى والشاعر الفذ «نيكوس كازنتزاكيس»، فإنه إنما يزكى نفسه بالبلاغة الخاصة التى ينطوي عليها مجمل عمل الكاتب والقدرات الروائية الفذة فى أدب الرحلات الذى ينتمى اليه هذا الكتاب والذى برع فيه كازانتزاكيس، وهو يزكى نفسه مرة أخري بسبب هذا الولع بحضارة مصر وروحها وشعبها فى الوادى وسيناء

رغم عدم معرفته الجيدة بطبيعة هذا الشعب فى سياق التطور التاريخى الذى تشكلت فيه خصوصيته وملامح وجدانه، وهى نظرة مثالية جعلت كازانتزاكيس يصف هذا الشعب أحيانا بالخضوع، ويتخيل وجود فروق عرقية بين الوجه البحرى والوجه القبلى وأصفا سكان الصعيد بالملونين.

وقد أجرينا مناقشة واسعة حول أربع قضايا يثيرها الكتاب بالاضافة للملاحظة السابقة:

الأولى تخص العنوان الذى وضعه الكاتب على هذا النحو «مصر وسيناء» إتساقا مع فصل واضح استنه عبر الكتاب كله يعالج سيناء باعتبارها شبه جزيرة مستقلة لا علاقة لها بمصر، مما يؤكد عدم معرفته الدقيقة بالتاريخ والجغرافيا فى المنطقة منذ قديم الزمان، حيث كانت سيناء- حتى فى الأساطير التوراتية التى يعود اليها كثيرا- جزءا لايتجزأ من مصر.

ولذا غيرنا إسم الكتاب إلى «رحلة الى مصر: الوادى وسيناء»

وتتعلق القضية الثانية، بما يمكن تسميته بالروح اليهودية التى تتشبع بها الرحلة إعتمادا على الأساطير والحكايات التوراتية المثيرة وما يمكن أن توحى

به من تأكيد لخرافة الحق التاريخى لليهود فى فلسطين، تلك الخرافة التى إستندت عليها معنويا وثقافيا عملية إغتصاب فلسطين من قبل الاستعمار- والصهيونية.

لكن كاازنتزاكيس قام برحلته تلك قبل نشوء دولة إسرائيل بعشرين عاما، أى قبل أن تتحول هذه الأساطير فعليا لأدوات بطش وإرهاب.. وتزييف للوعى وللحقائق التاريخية والجغرافية والوطنية فى المنطقة.

وتتصل القضية الثالثة بحديثه عن الرب، فمن الواضح أن كازانتزاكيس، شأنه شأن عدد من كبار الكتاب فى عصرنا وفى أماكن مختلفة من العالم، هو لاديني، ولذا يعالج مسألة الألوهية علاجا أدبيا وفنيا يمكن بطبيعة الحال أن يثير علينا المتزمتين والذين يعطون لأنفسهم تفويضا بمحاكمة الضمائر والعقول.

وقد آثرنا أن نواجه العاصفة بدلا من أن نحذف جملة واحدة من عمل هو حق لكاتبه الذى رحل عن دنيانا.

أما القضية الرابعة فتتعلق بالأولى ألا وهى عدم معرفة كازانتزاكيس بالتاريخ المصرى القديم معرفة كافية، وهو ما جعله يقع فى خطأ ربما يدرج عمله هذا فى عداد التعصب القومى لأهله اليونانيين، وهو القول بأن بعض عناصر الحضارة والفلسفة المصرية القديمة قد إنتقلت إلى مصر من اليونان، (ولذلك فلم ير الاسكندرية إلا مدينة يونانية)، وهى المغالطة التى دعته أكثر من مرة للتعبير الحار عن الفخر بأهله.. وحقيقة الأمر أن العكس هو الصحيح تاريخياً وعلميا.

وإذ نكتفى بالاشارة إلى هذه القضايا الأربع الاشكالية آملين أن تثير حوارا خلاقا بين المعنيين والقراء، لانريدها أن تكون مصادرة على المتعة الروحية الخالصة والعميقة التى يولدها هذا النص الفريد، وتفتح «أدب ونقد» صفحاتها لهذا الحوار حول القضايا المذكورة وغيرها، عسى أن يساعدنا الكتاب ومناقشته على إعادة تأكيد الأسس العلمية لبعض مسلمات شائعة حول تاريخ مصر وثقافتها.

مقدمة المترجمَيْن

يوميات هذه الرحلات التى يتألف منها كتاب (ترحال)، كتبها {نيكوس كاز انتزاكيس} بين عامى ١٩٢٦ و١٩٢٧ للجريدة اليونانية {اليفثيروس لوغوس} التى كانت قد دفعت له تكاليف السفر كى يزور الاراضى المقدسة فى اعياد الفصح عام ١٩٢٦، وكى يزور مصر فى السنة اللاحقة.

وقد نشرت الطبعة الاولى من (ترحال) فى الاسكندرية عام ١٩٢٧، لكن {كازانتزاكيس} لم يكن راضيا عن هذه الطبعة التى وصفتها السيدة {هيلين كاز انتزاكيس} بانها ليست {كاز انتزاكسية} ابدا، فقد نشرت بال {كاثاريفيوسا} او اللغة الاغريقية الصافية بصيغة ولغة الصحافة الفجة، وحين اتم {كاز انتزاكيس} الاعمال التى سيتألف منها المطبوع، اعاد كتابة (ترحال) من جديد بما يعرف بالاغريقية الشعبية مستبدلا لغة ال {كاثاريفيوسا} المصطنعة بتعابير وكلمات يونانية بسيطة واسعة الانتشار، وقام بمراجعات جديدة، وأضاف فصلا عن (موريا). اما الطبعة الجديدة المنقحة فقد نشرت فى اليونان عام ١٩٦١، بعد وفاة الكاتب، لذلك فان المقالات التى تشتمل عليها هذه الترجمة مأخوذة من اخر طبعة منقحة للكتاب.

ونحن ندرك ان هذا الكتاب سيحظى باهتمام خاص، من قبل القارىء المعاصر لانه يكشف عن الحدس التنبؤى فى نظرة كاز انتزاكيس لهذه البلاد،

فهو في فترة مبكرة، اى منذ عام ١٩٢٧ استطاع ان يستشف ان قدر الغرب ينتقل الى الشرق، وان مصر ستبرز كقوة متميزة فى العالم.

كتبت هذه المقالات بصيغة المتكلم، بصورةأصلية مباشرة وطرية، ولو انها مضطربة احيانا، لان المؤلف لم يتقصد اعطاءها شكلا فنيا، ومع ذلك فقد اشتملت هذه المقالات البسيطة والمباشرة على افكار ذات نظرة ثاقبة وعميقة للتاريخ، وكشفت لنا عن مصر فى منتصف العشرينات، وهى تشهد نمو بذور الثورة فى هذا الشعب الذى عرف على الدوام بانه سلس القيادة وشديد الخضوع لاسياده. فمن خلال وصفه للفلاح العربى وهو يجر المياه من النيل بنفس القادوس البدائى الذى كان يستخدمه اجداده الاوائل، يرينا [كاز انتزاكيس]، الانسان العربى كانسان لاينفصل ابدا عن ماضيه.

ان وصفه الواقعى هذا، عمل فريد ونادر قلما يخرج عن الحتمية التاريخية. لقد نظر الى هؤلاء الناس والى هذه البلاد، نظرة شاملة تعتمد دمج الماضى فى الحاضر، من اجل تصوير شكل المستقبل، ومن اجل تحديد صورة العصر القادم، تصوير شكل المستقبل، ومن اجل تحديد صورة العصر القادم. عصر الثورة.

هذه النظرة الشاملة تسير جنبا الى جنب مع الوصف السهل المتنع الساحر لهذا العالم الملموس، وللواقعية المعاصرة التى تكمن تحت سطحه، والتى تكشف عن نهوض الشعوب الشرقية:

«ببطء ولكن بشكل اكيد، اخذت الوحدة الهائلة بين المسلمين تتشكل... من مراكش حتى الصين، ومن تركستان حتى الكونغو... فالشعوب الشرقية تسير بخطى واسعة الى الامام»

ان هذه المقالات تكتسب فرادتها من خلال الاراء الانية حول الاماكن والناس، والتى تطورت فيما بعد لتصبح اللبنة الاساسية فى العديد من اعمال المؤلف اللاحقة وبشكل خاص عمله القريب الى السيرة الذاتية (تقرير الى غريكو) الذى تأثر فيه، فى اكثر من مكان، بوصفه الرائع ل (سيناء) كذلك

فان الاستلهامات المأخوذة من (سيناء) تكررت اكثر من مرة فى اعمال مثل (الامتحان الاخير للمسيح) و (الوجد اليونانى) و (الحرية او الموت).

لقد اثرت خبرات وتجارب السفر على العديد من اعماله العظيمة، كما فى (اوديسيوس العصر) وفى موسى ايامنا المعاصرة (زوربا) ذلك الجرىء المقدام بوصاياه العشر الجديدة وغيرها. كذلك فقد ساعدت على تأطير فلسفته التى كشف عنها بوضوح فى (مخلصو الرب) وفى (المأدبة)، احد اعماله المبكرة التى اكتشفت اخيرا.

لقد كانت الرحلات ذات قيمة كبيرة واهمية بالغة لانها كانت مصدرا للايداعات الخلاقة ل [كاز انتزاكيس] فالشرق بالنسبة له. يشكل مصدر جذب سحرى، فهو كانسان كريتى يشعر بصلة القرابة مع هذا الجزء من العالم، ويرغب ان يؤكد ايمانه بأن اجداده يجرى فى عروقهم الدم البدوى العربى.

فاليوميات الخاصة بمصر وسيناء التى يشتمل عليها هذا الكتاب، كانت ملهمته اكثر من اية كتابات اخرى، فى الجزء الأكبر من اعماله الابداعية.

محمد الظاهر/ منية سمارة

هذه الفصول عن مصر وسيناء جزء من كتاب (ترحال)، الذى يشتمل على فصول عن فلسطين، وقبرص، وايطاليا، وموريا، وقد نشرت الفصول الخاصة بفلسطين فى كتاب خاص صدر عن دار خلدون للنشر بعمان عام ١٩٩٠

النيل

حين اقتربنا ، اخيراً، من منطقة الخلجان الواسعة للنيل والبحر، منطقة الدلتا ، البقعة الخضراء العظيمة. كما كانت تسمى فى الهيروغليفية، كانت تلك البقعة على وشك استعادة خضرتها ، وكانت الاغنية القديمة التى حفظت لنا من زمن الفراعنة، تتغلغل الى شغاف قلبى.

نحن مغمورون، شئنا ذلك ام أبينا ، بهذا القلق المرعب لازمنتنا ، ومن المستحيل الآن على اى كائن حى ان يرتحل وهو خالى البال كسائح، اذاً، ما هى القيمة المباشرة للاهرامات والمومياءات الذهبية ومعابد الكرنك العملاقة، وتماثيل الملوك المصنوعة من الجرانيت، ما قيمة كل ذلك بالنسبة لنا ؟ وكيف يمكن لنا ان نتوقع ان تتملكنا الرغبة فى الاستمتاع بتلك البساطة، دون ان ننظر بدهشة وحيرة الى هاتين الحليتين الرائعتين اللتين تزينان هذه الاماكن، وهما النخلة والجمل؟ وفى ليل الصحراء، تمددت قرب النار، وانا احاول الاستماع الى الاف الانفاس الغامضة الغنائية للبرية، كل هذه الاصوات الرومانسية كانت ضائعة فى لجة اصوات المدينة المأهولة المعذبة التى انغرست فى اعماق قلبى قبل ان انطلق.

اننا نعيش فى عصر ذى صرخة خاصة، بامكانها اخماد كل الاصوات المرحة الرائعة للجمال والحكمة، هذه الاصوات التى اصبحت غير ذات جدوى لمتطلبات الحياة اليومية المعاصرة. انها مصر اخرى، غير التى كنا قد رأيناها قبل الحرب العالمية، ذلك الخط الدموى العظيم الذى ينقسم الى حقبتين، فى قلوبنا ، وهى ايضاً مصر غير التى تحملها عيون الانسان المعاصر، هذه الايام. فالحرب لم تغير مصر فقط، لكن، وهذا هو الاهم. هو ان عيناً جديدة قد اخترعت.

وهكذا، فإننى اليوم، وانا انظر الى مجرى النيل العميق المنخفض والخصب، اجد نفسى افكر فجأة، وبلا ارادة، بالتخلى عن كل التصورات السابقة حول الجواهر الذهبية، والألوان، والراقصين المصريين الشباب، والفراعنة المنتصرين، والآلهة العظيمة، وكنت اسمع صوتاً ينبثقُ من الرجال، مثل صوت الفلاح، صوت حاد ورتيب، صرخة مرعبة، أزلية، معاصرة لشاعر كادح مجهول من ممفيس:

«لقد رأيت! رأيت!

رأيت! رايت الحدادين امام النار وقد تجعدت اصابعهم مثل جلد التمساح، وانبعثت منها رائحة بيض السمك رأيت المزارعين بالامهم المبرحة فى الحقول، وهم يواصلون العمل فى الليل، فى الوقت الذى يتوجب عليهم فيه ان يخلدون للراحه.

رآيت الحلاق وهو يقص الشعر طوال النهار، يتنقل من بيت لآخر، بحثاً عن الزبائن وهو يبلى يدية من اجل ملء معدتة.

رأيت المرضى ينتظرون عودة البناء الآجرى، الذى يكدح تحت الشمس طوال النهار، ويتسلق العوارض الخشبية، وسطوح المنازل، ويعود فى الليل الى بيته ليضرب اطفاله.

رأيت النساج يعانى الفقر فى معمله، ركبتاه تنغرسان فى بطنه، يتنفس الهواء الملوث، وعليه ان يرشو الحارس، كى يستطيع رؤية ضوء النهار. رأيت ساعى البريد الذى يبرهن عن ارادته، قبل ان ينطلق، لأن هناك خطراً من افتراسه من قبل الحيوانات البرية المتوحشة او الناس، وهو يعد نفسه للانطلاق مرة اخرى، بعد عودة الى البيت مباشرة. رأيت الدباغ بعينيه المجهدتين،

واصابعة لها رائحة السمك العفن، يقضى حياته، يقطع الجلد. ورأيت الاسكافى الذى يستجدى طوال حياته، حتى انه يأكل الجلد الذى يعمل به كى لايموت من الجوع.

هذا هو النغم المعذب الذى كان ينبثق من مصر كلها، حين طلعت عليه الشمس فى صباح اليوم الاول لوصولنا. لو اننى سافرت الى مصر فى ايام القديس فرانسيس لكان بامكانى سماع الروح البشرية وهى تغنى غنائها الوثنى وتدعو المسيح كى يخلعها، ولو اننى سافرت فى ايام غوتة، لكان بامكانى التمتع بهذا الهارمونى الجديد الذى ينبثق من الكنائس العملاقة الباردة، وامتلىء بالبهجة وانا أستمع الى الصوت الهادىء للقساوسة وهم يباركون الفتى الاغريقى المولة، وهو يوغل فى غموض الحياة والموت.

لكننى اسافر فى الوقت الذى تستعبد فيه الروح الانسانية من قبل الآلة والجوع، وتناضل من اجل الخبز والحرية، فصرخة العمال اليوم التى بحت من الشراب، وتصاعدت كدخان الكراهية، هى صرخة الارض، وهذه الصرخة التى تقطع نياط القلب، قد رافقتنى طوال رحلتى من طرف مصر الى طرفها الآخر، وهى التى كانت تقودنى خلال هذه الرحلة.

لقد كانت الطبيعة مدجنة ومستعبدة، كطبيعة الفلاحين. فحقولها الموحلة مزروعة بالقطن، والبقول، والذرة، واشجار النخيل والاكاسيا، والصبار، والتين الشوكى، وسماؤها مثقلة، والوانها كثيفة، وهواؤها مشبع بالرطوبة. أما الغربان السوداء السمينة، فانها تطير وتحط فوق اتلام الارض المحروثة وطيور اللقلق النائمة، مثل الحروف الهيروغليفية تقف على ساق واحدة، على ضفة النهر.

اما الفلاح، فانه يبدو كقطعة من المنظر الطبيعى، مصنوع من نفس الطين، ويحنى قامته امام النهر، بجزره ومده منذ قديم الزمان، ويجر الماء ليملأ الأخاديد، أنه يفعل ذلك كله باخلاص مطلق ومهانة مطلقة. وهو بذلك يحذو حذو اجداده بالتقاليد التى مرت عليها الاف السنوات. لم يتغير شىء،

نفس الجباه الضيقة، نفس العيون اللوزية السوداء، نفس الشفاة السفلية الغليظة المتدلية، نفس الجماجم التى شوتها الشمس، ونفس العبودية.

اما النسوة، فنسوة قذرات، مثنيات القامة، كحيلات العيون، يسرن صوب النهر، كى يملأن جرارهن الفخارية، ويضعنها على «المدورة» الموضوعة على طرف رؤسهن الصلبة المغطاة. تماماً كما كانت تقتضى الاسس القديمة. ويتسلقن حافة النهر بخط مستقيم، فى خطر واحد، وببطء، واحدة اثر الاخرى وتلمّع الخلاخيل الفضية تحت أشعة الشمس، على كعوبهن التى لطخها الطين، ولفحتها الشمس.

هذه هى البقعة الخضراء الدلتا، التى قلبها تلك الياقوته الحمراء، القاهرة والتى تنفتح وتتمدد باتجاه البحر.

ومن القاهرة، صعوداً نحو الشمال، يبدو جذع مصر نحيلاً منبسطاً، مثل شجرة النخيل، يتمدد بين شريطين ضيقين اخضرين، بين فرعى النهر العميقين الزرقاوين، وعلى يمين وشمال ذلك الجذع، تنبسط رمال الصحراء الرمادية المترامية.

طيور حمراء تخفق باجنحتها فوق المياه، اشجار الذرة تنمو بكثافة، وسهول منبسطة تأخذ بالتجعد. ومنذ الاف السنين والنهر ينحت الصخور، ليشق له مجرى، كى يعبر هذه المسافة التى يبلغ طولها ستمائة وخمسين كيلوا متراً، من افريقيا الوسطى، حتى البحر الابيض المتوسط، حيث تعلو الجبال الصفراء، وتتدفق المياه الزرقاء بهدوء عبره، كى تثمر هذه الارض الرملية القاحلة اللعينة، فالهواء لافح، والصحراء ارض رمضاء، والناس يحتفظون ببشرتهم الملوّحة السمراء حيث تحول لون بشرتهم من اللون الحنطى الى لون الشيكولاتة الاسمر، واخيراً، فان كل الاجناس البشرية السوداء تطل علينا بذلك اللون المعدنى الداكن المتلألىء.

الطيور العديدة الالوان، وجماعات الديوك المزهوة، بأعرافها الطويلة، والسنونو الزرقاء، بصدورها التى لها لون القرفة.

الرجال نحيلون، والنسوة تتدلى الاقراط من انوفهن والاطفال يتمرغون فى الوحل ويأكلون قصب السكر.

وحين تغرب الشمس، تشوب الجبال عبر الطريق، حمرة خفيفة، وتعبر الجمال، باعناقها التى تتمايل ببطء، ويسحب الفلاحون دلاءهم، ليرووا الارض وهم يغنون، حيث يبدو الكل مسالم وقانعا، ولا ينقصهم شىء سوى قلب رومانسى كى يخدع بهذه الدعة والسكنية.

لكن خلف قناع الوداعة هذه، كنت استطيع تمييز ذلك الوجه الحزين المكافح لمصر. فعلى طول ذلك الشريط الضيق الذى يزهر بالخضرة وسط تلك الصحراء البغيضة. هناك معركة مرعبة لاتنتهى بين الماء والانسان، فلو توقف هذا الصراع للحظة واحدة فقط، فان كل مايزين هذه الارض من اشجار وطيور وناس، سوف يغمر تحت رمال الصحراء، فمصر ليست بهذه السهولة التى وصفها بها «هيرودت» حين قال انها «هبة النيل» انها هذا الاجر الكبير والصعب الذى أصر اله مصر العظيم ان يمنحه للانسان، فالفلاحون، ومنذ الاف السنين يكدحون ليل نهار ويناضلون من اجل ترويض قوة الالة الوحشية المتهورة. فقد خلق طوفانه بنفسه بشكل متناغم واطل بطلعته المليحة، وخلق مصر.

ومن الانهار الثلاثة القديمة العظيمة المقدسة، وهى النيل والفرات والفانغ، يبقى نهر النيل أكثرها قداسة. فالنيل هو الذى نقل التربة وخلق الارض، والنيل هو الذى غمر الارض فيما بعد بالماء وجعلها مثقلة بالثمار، هو الذى انجب النباتات والحيوانات والفلاحين، وهو فى النهاية الذى اجبر الناس على العمل معا من اجل تنظيم واكتشاف العلوم الاولى.

فى العصور القديمة كانت مصادر النيل ومنابعة مجهوله غامضة، وقد ادعى الكهنة انه ينحدر من السماء، وجعلوه اله الآلهة والجد المارد الجبار، الذى يستلقى على الرمال اما احفاده الذين لاتراهم العين لدقة حجمهم، فانهم يتجمعون كلهم من حوله.

لقد كانت منابعه سرية، مظلمة، مثل مصادر ومنابع الآله، ان وجهه يتغير مثل نجم الدبران (الثور) وتتغير الوانه من الاخضر الى الاحمر الارجواني، الى اللون الداكن، الى الازرق الغامق، وكما تقول الاسطورة المصرية القديمة، فان ثلاثة من الرجال اقسموا ان يبحروا باتجاه الجنوب طوال حياتهم كي يعثروا على منابعه السرية. بعد عشر سنوات مات الرجل الاول وبعد عشر سنوات اخرى مات الرجل الثاني. دون ان يصلوا الى نهاية الماء. وحين اصبح عمر الرجل الثالث مائه عام استلقى فى قاربه مثل الموميا ء استعداداً للموت، لكن صوتاً انبثق من الماء، وهمس له فى اذنه ليواسيه:

« مبارك انت ، لانك الوحيد من بين كل الرجال الذى رأى اغلب الماء. مبارك انت لأنك الآن ستنحدر نحو الحادس- مثوى الاموات فى المثولوجيا الاغريقية- وانك ستعثر على منابعى التى كنت تناضل وتجاهد من اجل الوصول اليها. »

اما اليوم فقد حل ذلك اللغز الغامض، فالنيل ينبع من البحيرات الافريقية العظيمة، وهو يفيض فى شهر شباط - فبراير- بفضل الامطار الغزيرة، ويحمل التربة من سهول الحبشة ، وينحدر فى مجريين، النيل الابيض والنيل الازرق، ثم يعود ليجرى فى مجرى واحد عند الخرطوم. ومن هناك يتابع سيره فى مجراه السرمدى، حيث يفيض، يوزع طميه على الرمال، ويخلق على اليمين وعلى الشمال من ضفتيه رقعه صغيرة من الارض الخصبة.

وفى الصيف، تهب رياح الخماسين، تلك الرياح الغربية المروعة. التى تصيب مصر بالجفاف والذبول، حيث تمتلئ الاشجار بالغبار، ويذبل العشب، ولايعود الناس او الحيوانات قادرين على التنفس، ويتقلص النهر ويتضاءل وتشل الحياة كلها فى مصر، ونرى الصحراء ، وكانها تقف على اهبة الاستعداد ، راغبة فى التوسع والامتداد وابتلاع مصر.

لكن الثلوج تبدأ بالذوبان فى الحبشة، ويرتفع منسوب المياه فى النيل، وينحدر فى مجراه. وفى نيسان يحمل امواج الفيضان الى الخرطوم، ويبدأ

منسوب المياه فى الارتفاع، حيث تغمر البهجة الحقول، والتربة والحيوانات، والناس، وتستطيع العين تبين ذلك الارتفاع اليومى فى منسوب المياه بشكل واضح، وتبدأ البشرى بالسريان عبر المدن لتعلن عدد السنتيمترات التى ارتفعها منسوب الماء. وتبدأ السدود الترابية بالتفتت وتعود الحشرات للحياة من جديد، وتبدأ الاجناس البشرية باطلاق ضحكاتها مثل طيور مالك الحزين، وتتقافز الاسماك وتلعب فى الامواج الطينية. وتحلق اسراب الطيور فوق المياه الغزيرة

فالنيل يتحول، ويتغير، أنه يستحيل الى اخضر ثم يصبح احمر اللون، كلون الدم، واخيراً يصبح بلون الطمى ويغمر الارض. فيملأ القنوات، وتمتلئ الخزانات بكنوزها المائية وتبدو مصر كلها مثل بحيرة، تطفو فوقها المدن والاشجار.

وقد وجدت هذه الكلمات على أحدى الاهرامات قبل حوالى ثلاثة الاف سنة من ميلاد المسيح:

«أولئك الذين يدينون بالفضل للنيل يرتعدون. لكن الحقول تضحك، وضفاف النهر تزهر، وتنحدر قرابين الآلهة من السماء.. ان قلب الآلهة يرقص فرحاً»...

وحتى نهاية آب- اغسطس- يكون النيل قد بلغ اقصى مستوى له. وبعد ذلك يبدأ منسوب المياه فيه بالتناقص شيئا فشيئا، فتنتهى البهجة، ويبدأ زمن الأسى والحزن عند الفلاحين الذين يبدأ موسم كدحهم وشقائهم. حيث تبدأ حراثة الارض، وبذرها وريها، وحصادها وفى النهاية، يظهر ذلك المظهر المأساوى لهذا الكدح، الاوهو وصول «الافندى» نفس ذلك الوجه السرمدى، لكن باسماء مختلفة: الفرعون. الكاهن، المالك الاقطاعى، التاجر، المرابى، كلهم يأتون لجمع الثمار من تلك الاراضى المدروسة.

فالنيل لايورث فقط. الارض والاشجار والحيوانات والناس، انه يورث ايضا القوانين، والحقائق العلمية الاولى، ففيضانه ليس مصدر خير دائما. لانه

يتحول فى الوقت الذى لايستطيع الانسان السيطرة عليه. لذلك يجد الناس انفسهم مجبرين على تنظيم انفسهم، والعمل معاً وبذلك يتحملون نصيبهم من هذا الفيضان، فيقدرون ارتفاع منسوبه، ويتحكمون بقوته المدمرة، ويختزنون طاقته المائية فى خزاناتهم.

وهكذا ينتظم الناس فى تجمعات ويكتشفون قوانين (العلوم المائية العلوم الهيدروليكي)ة وبعد ذلك سرعان مايجبرون على اكتشاف العلوم الهندسية، ففى كل عام، تغمر مياه النيل الحقول، وتحطم الحواجز الرملية، ولذلك يصبح من الضرورى لكل ملكية فردية ان تكتشف بوضوح فائدة تسجيل الارض فى سجلات الاراضى وبشكل دقيق. وبهذه الطريقة يكون النيل سبباً فى خلق «القانون». وهذا يعنى ظهور علم الفوارق والطبقات.

ولأن كل ضاحية تعتمد على الضاحية الاخرى، ولان ازدهارها ونموها يعتمد على التنظيم المحكم لتوزيع المياه، فان النيل يجبر الناس على قبول قسوة الحكم الكهنوتى (السلطوى) الذى يمثل اجتماع كل السلطات فى رمز سياسى واحد، يستطيع ان يتحكم بالماء كله. ويوزعه بالعدل. لذلك يبدو انه كانت هناك حاجة ملحة، لوجود وخلق السلطة الفرعونية المطلقة.

فى بقيةدول العالم، نجد ان الامطار والفيضانات قد جعلت هذه الدول تهرب من السلطة الحكومية، اما فى مصر فقد اقتصر تنظيم الماء على الحكومة. وحين جاء نابليون العظيم الى مصر، استطاع سبر اغوار هذا السر، الذى يجعل السلطة السياسية الصارمة، امرا لاغنى عنه فى مصر. فقد كتب يقول:

«لايوجد فى اية ارض أخرى، مثل هذا التأثير العظيم للادارة الحكومية على الحياة الاقتصادية كما هو موجود هنا، فاذا كانت الادارة جيدة، فان القنوات تحفر بشكل جيد، وتصان بشكل جيد، ويكون توزيع المياه عادلاً.، وتمتد خيرات الفيضان الى اوسع رقعة من الارض. اما اذا كانت الادارة ضعيفة او فقيرة، فان القنوات تغلق، والسدود تهدم وتخرب، وتنتهك حرمات نظم خدمات توزيع المياه ويسرف الماء، وتعانى الارض من نقص المياه.

كنت اتجول على طول الشواطئ، بين اعواد قصب السكر، واتفرس بمهابة وخوف هذا الماء الابكم. وهو يتحرك بكثافة وهدوء، لقد استطاع الانسان التحكم بفيضانات النيل، من اجل زيادة الخصب، فقد ناضل باقصى مايستطيع من اجل تهذيب، وري، ومواجهة الصحراء وقد بدا لى للحظة ان هذه الصحراء قد استسلمت وانفتحت ، وحملت الثمار وانجبت اشجار النخيل والحيوانات والفلاحين، لكن خلف هذه الاشجار، وخلف اكتاف هؤلاء الفلاحين الذين يجرون المياه استطعت ان اتبين برعب العيون الاخرى البراقة، عيون الصحراء التى لاتستسلم ابدا.

وانا لا استطيع ان انسى ذلك اليوم، حيث استطعت وانا اقف على قمة جبل اليوبوليس، ان المح فجأة خلال الاوراق الباردة الخضراء لاشجار الموز، بان الصحراء قريبة جداً. رأيتها تتلألأ مثل زهرة، وتنتظر، لقد انقبض قلبى لاننى عرفت، عاجلا ام آجلا، بان هذا النمر المرعب سوف يكسب فى النهاية. فالنيل يمتد بلاجدوى ويخصب هذا الشريط الرملى الضيق الذى لاقيمة له.

اذا الى متى؟ الى متى يقوم هؤلاء الناس التعساء ، نصف العراة بجر المياه، وفتح الاثلام والقنوات، وزرع البذور وعزق الارض، الى متى يستمر هذا النضال؟ طالما ان النيل سوف يتناقض فى لحظة ما، سوف يتناقض لتعود بعد ذلك رمال هذه الصحراء الرمادية الناعمه التى لاتهزم ابداً.

ولهذا السبب، كان الكهان يقدمون القرابين للنيل، ويرفعون ايديهم بالدعاء له والثناء عليه:

«مرحى ايها النيل المتجسد فى الارض
القادم بسلام
كى يحيى مصر
انك تخفى عبورك فى ثوب الظلام
وتمد امواجك الى الحدائق
وتعطى الحياة لكل شيئ ظامئ

انت رب السمك
واب القمح
وخالق الجهد
اذا توقفت اصابعك عن العمل
فان الاف المخلوقات سوف تهلك
وتختفى الآلهة
وتصاب الجموع بالجنون
لكن حين تكشف لهم عن نفسك
فان الارض تطلق صيحات البهجة
وتحس كل بطن بالمتعة
وتدغدغ الضحكات كل نفس
حيث تجد كل سن ماتلوكه وتمضغه!!

وبعد اربعة الاف سنة، يقوم شاعر مصر العظيم هذه الايام احمد شوقى بالثناء على النيل بنفس الطريقة التعبيرية.

«والماء تسكبه فَيُسْبِكُ عسجداً
والارض تفرقها فيحيا المفرق
لو ان مخلوقا يُؤلَه لم تكن
لسواك مرتبة الالوهة تخلُقُ
دانوا ببحر بالمكارم زاخر
عذب المشارع مَدهُ لايلحقُ
متقيد بعهوده ووعوده
يجرى على سنن الوفاء ويصدقُ
يتقبل الوادى الحياة كريمة
من راحتيك عميمة تتدفقُ»

القاهرة

هذا هو الشرق كما نحبه، طافح بالنور، والالوان، والعطور، ورماد اجيال عديدة لاتحصى بزغت من طمى النهر، وجفت كما تجف قوالب الطين فى الشمس، ثم تحولت ثانية الى طمى.

فى شوارع القاهرة، كنت اتمتع برؤية المحصول الانسانى المعاصر للنيل: الفلاحون النحيلون الرشيقون، المرهقون من العمل والجوع، والاقباط الماكرون الذين يتغذون جيداً، والبدو الطوال الصامتون المزنرون بالأحزمة، فى عيونهم نظرات النسر الحادة، وممتلؤن بالانفة والكبرياء، والزنوج بنظراتهم المفترسة وشفاههم الغليظة، وعيونهم المكورة. ونسوة كحيلات العيون يرتدين الخلاخيل الفضية كالعبيد. وخلال الطواف فى ارجاء هذه الظلمة الانسانية الملونة، التى تعبق منها رائحة المسك والروث، كنت ارى اولئك الأوربيين الشاحبين كالمرضى، تحت حرارة الشمس العربية، الذين لفحت الشمس وجوههم وجعلتهم كالمصابين بالدوار.

احدى الفلاحات كانت تعبر وهى تغطى طفليها الرضيعين بشالها الواسع الذى يتدلى من رأسها، كالسمكة.

وكان هناك ثلاثة من العرب يتمنطقون ب «الياطاقان» (سيف تركى محدب) ويقرعون الطبول وهم يقودون جملاً هرماً مترهلاً متوجاً بالازهار

خلفهم، وكانوا طوال الوقت يغنون بفرح وينشدون:
«غداً سيذبح هذا الجمل الهزيل
فى ملحمة احمد على
وهنئياً لمن يجد الوقت
ليشترى من لحمه»

اما «الفتوات» المتسكعون فقد كانوا يركضون وهم يحملون محارق البخور البرونزية الخفيفة، يحثون الخطى، وهم يدخلون او يخرجون من هذا الدكان او ذاك. وعند هذا الوقت كانت الشمس قد بلغت الظهيرة، وكانت الشوارع قد امتلأت بالجلاليب، وفاحت رائحة البهارات من اعماق السلال الصفراء، وامتلأت الشوارع المرصوفة بالفواكة، وروث الجمال والاغنام. ومرت مومس طويلة القامة، متهتكة، واخذت تسير بتمهل، ورائحة المسك تعبق منها، تاركة ملايتها تتماوج على ركبتها، ومرسلة ضحكاتها المتواصلة.

وعند احد الميادين، كان هناك رجل عجوز يحشو بعض القطن فى فمه، ويتظاهر انه يمضغ ذلك القطن ثم يبتلعه، وبعد برهة وجيزة انضم اليه رجل آخر، وجعل اصبعيه على شكل ملقط وأخذ يسحب القطن من فم الرجل العجوز، فى شريط لانهاية له، ثم تدخلت امرأة اخرى، يبدو انها العضو الثالث فى هذه المجموعة الاستعراضية، فالتقطت طرف الشريط القطنى، ولفته حول خصرها الدقيق، ثم اخذت تدور كالمغزل، وحين فرغ فم الرجل العجوز، دارت صينية جمع المال على المتفرجين، ثم انفض السامر.

ومنذ اقدم الازمنة، كانت هناك مشاهد خفية، فقد كانت النسوة يقمن بتفلية شعورهن تحت الشمس، وكانت الافاعى الملونة الساحرة فى كل مكان، وكانت النباتات المتسلقة تلتصق بجذوع الاشجار بحثاً عن الخلاص، وفجأة دلفت الى الشارع مجموعة من النسوة المفجوعات اللواتى كن يلوحن باذرعهن، ويشددن شعورهن، فى حين كانت احدى الجثث الملفوفة بالكفن الابيض تسير خلفهن، فى نعش عال، مغطى بالقماش الاخضر.

وفجأة هبت علينا الرائحة الحادة للقرفة والقرنفل والبخور، فقد كنا وصلنا الى سوق النسوة المسقوف، الذى تباع فيه كل انواع البهارات العربية، حيث يجلس شباب شاحبون يقبضون على ايدى الهاونات الحديدية الضخمة، ويدفعون بها الى اعماق الهاونات الحجرية، وكان هناك رجل عجوز يتربع على حصيرة من القش، ويقوم بخلط البهارات، والمراهم ومزجها معاً فى هاونات رخامية صغيرة. وكانت البائعات الجوالات يقمن بحسر الحجاب عن وجوههن الى النصف ويقمن بالتدليل على بضائعهن باصوات خفيضة: كحل اسود للعيون، وحناء لصبغ الاظافر، وزيت الطيب من بغداد، وماء الزهر، وماء زهر البرتقال، والمسك، والبخور، وكل تلك البضائع التى تقود الى الغواية والخطيئة.

وهناك، بعيداً فى اسفل الشارع، تبدأ ورش العمل الصغيرة، حيث تصنع التحف الفضية والنحاسية فهناك يقف الصناع المهرة، وهم مستغرقون جسداً وروحاً فى عملهم، ومن خلال ادوات تقليدية قديمة يقومون بعمل التصميمات القديمة على المعدن، مثل: حوريات البحر والاسود، اشجار السرو، ومقتبسات من الآيات القرآنية.

وفى الجهة المقابلة من ذلك السوق ذى الاضاءة الخافتة نجد السجاجيد، الاقمشة الحريرية الاقمشة الفاخرة الملونة، السيوف التاريخية، والاداوت المرصعة بالعاج والياقوت الاحمر واللؤلؤ، وقد ذكرنى ذلك بكنوز الخليفة المستأنس بالله. كما وصفت لنا فى احدى الروايات التاريخية القديمة:

تقول الرواية:

-«الصدر مشغول بالزمرد، الف ومائتا خاتم مرصعة بالحجارة الكريمة، الاف من الصفائح والاوانى الذهبية المشغولة بالمينا الملونة، تسعة الاف برميل متعددة الاشكال من الخشب الثمين، مطلية بالذهب، مئة قدح محفور عليها اسم هارون الرشيد، سلسلة ذهبية تزن ثمانى عشرة اوقية، اربعمائة قفص، طاووس مرصع بالمينا، ديك من الحجارة الكريمة غزال من الؤلؤ، طنافس

وسجاجيد لاتعد ولاتحصى، وعلى الف منها سجل بالسلالات التي حكمت العالم».

احد الفلاحين كان يبكى بصوت مسموع، وهو يرفع يديه الى الاعلى استدرت، وفجأة، تحول هذا المشهد المليء بالملذات والثراء الفاحش. كسراب في الصحراء، تطاير بخفة في الهواء وتلاشى. شعرت بالخجل، ليست هناك خطيئة هذه الايام، اعظم من استسلام الانسان لاغواء الجمال المرعب، فحوريات الاساطير القديمة، تشل قوانا، وتغوى قلوبنا، وتلهينا عن القيام بالواجب المقدس تجاه عصرنا هذا.

غادرت بسرعة، وتوجهت صوب جدران المدينة المهدمة، وتسكعت لساعات حول قبور الخلفاء العجيبة، والمساجد المقدسة الرائعة، والمنارات والمآذن، وهى تسمو باضوائها البهية، كأنها شهب بيضاء تخترق السماء الزرقاء الداكنة. وكانت المدينة تهدر في الاسفل كهدير البحر، وبدأت الشمس تنحدر نحو المغيب، وبدأ الهواء يزداد برودة، الى ان اصبح بارداً جداً.

الآن، استطيع ان ارى الصحراء تلف كل البيوت، تلف المدينة وتحاصرها، اما زهرة القاهرة العظيمة، فانها تستلقى متفتحة على الرمال. تشرب من ماء النيل، وتزهر. اما الهواء فقد رؤض بالموبقات والموت.

وفي الليل، وانا اتجول خلال الشوارع الضيقة للمدينة القديمة تعثرت بشكل غير متوقع، باحد الميادين التي تثير الشبهة والريبة، كان مليئاً بالفوانيس، والنساء، وغرف النوم الارضية القذرة.

كانت هناك نسوة عاريات الصدور يجلسن، او يقفن، او يرقصن على عتبة كل باب، ينادين على الرجال، تومض اجسادهن باللون الازرق الغامق كالخمر الاثيوبية المعتقة، وبعضهن كقطع الشيكولاتة السمراء والبعض الآخر بيضاوات، بالبودرة، كالنساء الاوربيات وخلفهن يضئ فانوس من نوانيس البترول الصغيرة، وسرير واسع يمتد من طرف الغرفة الى طرفها الآخر. وفي

زاوية الغرفة إبريق ماء ولاشيء سوى ذلك.

وفوق الابواب، تدلت معاطف ذات اكمام، تعود لهؤلاء النسوة. البائسات، وسحلية صحراوية محنطة كبيرة الحجم أوجرذ محنط، او رسم لتمساح يبتلع امرأة، او جنيه بحر تضم سفينة الى صدرها، اضافة الى لافتات معدنية صغيرة، كتب عليها «للايجار» بكل اللغات.

وكانت هناك فتاة شابة تضع احمر الشفاه، وذات عينين لوزيتين رائعتين تضع مجمرة يشتعل فيها الفحم بين ركبتيها، تحمص الخبز وتأكله. وهناك فى البعيد، اسفل الشارع، كانت تجلس امرأة عجوز بشمعة تشوى سرطانات البحر الصفراء الصغيرة وتبيعها. وكان الهواء المحيط بها مشبعاً كله برائحة البحر.

وقد مررت بفتاة ايطالية سمينة وهى تحادث جارتها!

- «وكيف صنعت كل ذلك»

- «لقد صنعت سروالين وثلاث جلابيات». هكذا جاء الرد المرح من الفتاة الاخرى.

تجمعت الدموع فى عينيّ. فاخذت اوسع خطواتى، كى اعادر بسرعة واهرب. لكننى بقيت ضائعاً فى تلك الشوارع الملتوية. وبدأ الرذاذ يتساقط، وفى مقهى ملىء بالرجال والاولاد، استطعت التعرف على القديس «انطونى اف بادوا» فى اطار كبير على الحائط. وهو يحمل زنبقة بيضاء فى يده. وفى مقهى آخر كانت هناك صوره د «فينيزيليوس» وهى تتحدث مع» كونستنطين»، وفى اسفل الشارع» «جورج» مع «اولفا».

وهذه المدينة مثلها مثل اية مدينة شرقية، تملأ الرأس بالضجيج، والحيرة، الوان. عطور، رجال، نساء، افكار، وقضايا اخلاقية ومشاكل اقتصادية. وكنت احس بان كل هذا الهيجان السريع الزوال ينبض فى طمى النهر، وينضج تحت شمس افريقيا اللاسعة.

وكما يبدو لى من خلال احساسى الداخلى، كان هناك دائماً قانونان، فرضا القيادة الكهنوتية، على هذا الجانب الفوضوى من الحياة الانسانية:

. المعيار الاول: الميعار الانساني النسبي: وقد شعرت بالفظاعة لان الحياة، وعبر الاف السنين في مصر، قد انتظمت حسب المعايير الذاتية لعدد قليل من القادة- الالهة، والكهان، والملوك، والمرابين-هؤلاء القادة الذين ساقوا الفلاحين الى الحقول كالحيوانات وقالوا لهم» احفروا وازرعوا واسقوا، ونحن سننهب الخيرات». وبالفعل، فخلال هذه الالاف من السنوات، بثت روح الحقد والانتقام بينهم وهم يقلبون اوجاعهم وينحتون تاريخهم في قلب الحجارة. ولم يحاولوا ابداً الاتحاد معاً، من اجل الهرب من هؤلاء الملوك المتعطشين للدم، والقوانين الجائرة، أو من الآلهة الفظة التي حفروها بانفسهم في الجرانيت، وشكلوها بايديهم. والآن، مايزال الفلاحون يعانون من الجوع والاجهاد الشديد، تماماً كما كان حالهم خلال الاف السنين. وماتزال النسوة اللواتي يعانين من الجوع، يبعن انفسهن، وتتمزق قلوب الرجال النبلاء دون ان تكون قادرة على صنع الخلاص.

.المعيار الثاني، هو المعيار الفظ المطلق: هذا المعيار الذي يجعل كل هذه الامواج البشرية ترتسم مباشرة في العين، بكل بطولتها وبأسها، وبلا اية محاولة للخداع بنظرية التعويض او الأمل.

لقد كانت مصر كلها، تمتد امام عيني وكأنها حاشية من الخيوط الملونة، معجزة قرى النمل الانسانية الملونة الواقعة على ضفاف النيل، ومعجزة، هذان الشريطان من السرحل اللذان يزهران بالخضرة على يسار ويمين النهر، وينتجان الغذاء للآلهة، والناس، والحيوانات، كي تأكل. ومعجزة ايضاً هذه الصحراء القاحلة التي لاتحد، والتي نقتل الآلهة، والناس، والحيوانات.

انا لم اشعر بمثل هذا الاحساس، في اي مكان على هذه الارض، الاحساس بالعنف ولذة التواصل بين الحياة والموت. لقد اعتاد المصريون القدماء على وضع المومياءات في صدر قاعات الطعام من اجل النظر الى الموت، من اجل تقوية وعيهم بحياتهم القصيرة تقول احدى اغانيهم القديمة التي حفظت على ورق البرشمان (ورق نفيس شبيه بالرقوق)

«تمتع بكل يوم. ادهن جسدك بالعطور،
واجعل انفك يتشمم الروائح العطرة،
واعقد باقة من اللوتس لحنجرتك، ولجسد
المحبوب الجالس بالقرب منك.
اسع لملاهيك الانية، واهرب من متاعبك
ومسؤلياتك، حتى تأزف الساعة التى سيأخذونك
فيها الى ذلك المكان الهادىء الذى تحب،
وتذكر: لا احد يمكنه الرجوع من هذا المكان، ابداً»

اما انا الذى احب القول الفصل ب «نعم» و «لا»، فقد تمتعت بعمق، بهذين الوجهين لمصر، الوجه الاخضر، والوجة الصحراوى الرمادى.

الأهـــرام

تذكرت لوحة مشهورة تصور الحرب، على شكل جبل هرمى طويل من الجماجم. ان قلبنا لايتقبل بسهولة هذه الاعمال الوحشية التى ابدعها الالاف الذين عملوا وكدحوا ثم ماتوا تحت الرماد.

ومع ذلك كانت هناك حشود من الامريكيين الذين يرتدون النظارات، ويكشفون عن اسنانهم الذهبية يدورون حول الجماجم مثل الغربان، كانت النسوة يصعدن الى ظهور الجمال، وكانت جواربهن الحريرية تلمع فوق ركبهن، وكان هؤلاء السياح يقومون بجولة تقليدية حول الاهرامات، ينذمرون قليلاً. ثم يتوقفون لالتقاط صورلهم وينطلقون عائدين الى شيكاغو.

وكانت مجموعة من الفلاحين قد تراهنت مع احد الفلاحين، اذا استطاع ان يصعد وينزل الهرم الاكبر فى ست دقائق فانهم سيعطونه نصف جنية. واخذ الفلاح البائس النحيل الجائع، يتسلق الجدران الهائلة بيأس، ويقفز بغير هدى بين الصخور، ويختفى للحظات، ثم يعود ليظهر فى النهاية على قمة الهرم ثم يندفع بقوة نازلاً رأساً على عقب.

كنت اتابعه وانا اتمزق، اما الامريكيون فقد كانوا يعدون الدقائق على ساعات ايديهم، وعاد الرجل وهو يلهث، وسقط عند اقدامهم، ورفع عنقة، وهو يلهث. لكن الامريكيين كانوا كسبوا الرهان، وغادروا المكان وهم يقهقهون، فاخذ الفلاح يبكى.

قلت لعربى كان معى:

- «قل له ان يمسك بعض الحجارة ويكسر بها رؤوسهم».

لكن العربى ضحك وقال:

-«لماذا». السادة على حق، لانهم لم يدفعوا له، لقد خسر الرهان».

-«لكن لماذا يضحكون؟

-«الفائزون يضحكون دائماً، الاتعرف هذا؟»

فى هذا الجو القديم من العبودية بدا لى ان هذا الحوار القصير قد القى الضوء على كل تاريخ مصر، مثل الشروحات الهيروغليفية على الصقور

والارانب، والايدى المزفة المحفورة على الاهرامات.

وسرت على طول الضفة الرملية، واشعة الشمس تكاد تثقب جمجمتى، كانت الصحراء كلها فوق درجة الغليان، كانت الريح تعصف، وتدور بشكل لولبى فوق الرمال. انه وقت الظهيرة، انه ساعة السحر والفتنة، الساعة التى تظهر فيها ابنة تشويبس» «CHEOPSAA» من الهرم الاكبر، وتظل تطوف فى خيال الفلاحين، وتنادى عليهم.

لقد استنفذ والدها كل ثروة مصر من اجل بناء الهرم الاكبر، وحين لم يتبق لدية شىء، باع ابنته للغرباء ومن كل رجل، كان عليها ان تأخذ حجراً كهدية لنفسها، ومن هذه الحجارة، استطاعت هى الاخرى ان تبنى هرماً صغيراً لنفسها، ان هرمها سيظل الى الابد يبدو صغيراً جداً، ومايزال يتوسل ويستجدى حجارة اخرى.

الفسق، الفجور، العبودية، القوة، كلها تنمو بشكل متسق مؤتلف، فى هذه التربة الندية الدافئة، الخصبة، المحاطة بهذه الصحراء المرعبة.

الموت فى كل مكان، ولو انهم نظروا خلف هذه الاوراق الخضراء لرأوا الصحراء. ولو انهم توقفوا عن العمل حسب هذه القوانين المجحفة، لو لدقيقة واحدة، فان النهر سوف يغرقهم، ولو انهم رفعوا رؤوسهم فى وجة سادتهم لهلكوا.

المصرى باستثناء لحظات نادرة فى تاريخه، لم يجعل الحرية غاية له ابداً. ففى حياته السياسية كان عليه ان يطيع القادة، والفنون كان عليه ان يتبع القواعد الثابتة والفكر كان يتبع تقاليد العصور السابقة. ولآلاف السنوات كانت غايته العظيمة الوحيدة هى هزيمة الموت وقهره.

واذا كتب له ان يستمر حتى فى مرحلة مابعد الموت فانه سيعيش نفس نمط الحياة الذى لايتغير. كان عليه ان يجد طريقة ما من اجل الحفاظ على جثته، حتى تستطيع روحه ان تميزها وتعود اليها مرة اخرى.

اما قصوره وبيوته فقد كانت من الطين لانها خيام لمرحلة انتقالية، اما

قبوره فهى من الحجارة الصلبة، لانها مساكن ابدية. ان الافاً من العمال يقومون بتفريغ الجثة من احشائها ويملأونها بالطيوب والاعشاب الطبية العطرية والقار، ويعلقون الطلاسم فوقه، ويضعون «كتاب الموت» الى جانب جسده، حتى يكون بامكانه معرفة الاجابة على: اى الطرق يختار، واى التعاويذ يتلو.

فى تلك الاماكن الخفية تحت الارض، على المومياءات، وعلى الجعلات (الخنافس)، يصرخ الميت: «لم اقترف خطيئة، لم اقتل لم اسرق! لم اكذب لم اكن فى يوم ما سبباً لدموع فى عين اى انسان! اننى نقى! فانا لم اقتل حتى مجرد حيوان مقدس، ولم اطأ الحقول المحروثة! لم افتر على احد، ولم اغضب، ولم ارتكب المعاصى! ولم اتصرف بشكل غير لائق مع والدى او الملك! ولم اغش ابداً وانا ازن الاشياء! ولم آخذ الحليب من افواه الاطفال! ولم احرف الماء عن مجراه! اننى طاهر، طاهر، وعفيف!!»

لكن على جدار القبر تكون الرسوم الوحشية التى لاتعرف الرحمة امامه، اثنان واربعون من الآلهة يحيطون به ليحاكموه، آلهة العدالة تجتث قلبه من جثته، وتضعه فى كفة الميزان، فتأخذ الجثة المروعة بالنداء على قلبها:

- «ياقلب احى، ايها القلب الذى صاحبنى منذ لحظة الولادة، لاتكن شاهداً قاسياً على افعالى، كن رؤوفاً بى امام آلهة الحادس» (آلهة مثوى الاموات فى المثيولوجيا الاغريقية).

فاذا نجا، تبدأ الحياة الابدية تحت الارض، فتحاط الروح بالطعام، والاثاث، والحيوانات، فى الازمنة الاولى، كان الاسلاف يحضرون الطعام بالفعل الى القبر، وفى فترة متأخرة كانوا يقومون فقط باحراق الطعام، حيث كانت الروح تتغذى على رائحته، واخيراً اصبحوا يكتفون فقط برسم صور الطعام، والاثاث، والحيوانات. ذلك ان صوت الكهان يمتلك القوة السحرية التى تعطى الحياة لهذه الصور. حيث نرى الحياة تنبض فى الحيوانات، واللحم، والخبز، والفواكة حيث تنزل هذه الاشياء عن الجدران، وتنتشر على الطاولة، فتقوم

الروح الجائعة بالتمتع بأكل الطعام. وبعد ذلك تنزل صور العربات التى تجرها الخيول، فتعد نفسها، وتأخذ تلك الروح السعيدة التى تغذت جيداً، فى جولة،كى ترى حقولها، واطفالها، وتسير تحت الشمس المحجوبة على طول النهر.

يقول «كتاب الموت».

-«تذهب كل صباح، وتعود ثانية الى القبر مع الليل، وهناك شموع ضخمة تنير لك الليل لتضمن راحتك الى ان تشرق الشمس على جسدك مرة اخرى، وهى تهتف لك، اهلاً، اهلاً بك فى بيتك!!»

هذا الظمأ الى الابدية يحكم مصر، وهو ينظم حياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وهو الذى يسيطر على الاداب والفنون، وهو الذى يريح العبيد ويمنحهم الصبر، والكهان والملوك يستفيدون ويستخدمونه كأداة للثراء والقوة والجاه.

لقد استمعت الى صرخة الابدية هذه وهى تدوى. فبدت لى هذه الاهرامات الصلدة فجأة، مثل خيام حجرية تخيم فى صحراء الموت، وتحرس الروح حتى لاتموت، وفى لحظة توهج مأساوية مفاجئة، بدت لى مثل فارس دونكشوتى طويل، يقاتل بلا أمل من اجل التقاط نفس الابدية الضئيل على هذه الارض.

وهناك اغنية رائعة عن الموت، حفظت لنا، لانها نحتت بالحروف الهيروغليفية، تقول:

«ماهو الموت!

كل يوم اقول لنفسى: الموت يشبه انساناً ما انطلق من قهر المرض.

كل يوم اقول لنفسى، يشبه استنشاق الشذى والعبير، ويشبه وجودك فى ارض السُّكْر

كل يوم اقول لنفسى: الموت يشبه تلك اللحظة التى تكون فيها السماوات صافية لفترة، حيث يأخذ الانسان شبكته

لصيد الطيور، ثم يجد نفسه فجأة فى مكان لايعرفه!
ماهو الموت!
انه ذلك القلب الطاهر المستقيم الذى آن اوانه»

انه ذلك القلب الطاهر المستقيم الذى آن اوانه!

هكذا بدا لى «ابو الهول» حين وجدت نفسى امامه وجهاً لوجه هذا اليوم، وللمرة الاولى. على بعد قليل من الاهرامات.

لقد نحت فى الصخر الاصفر، بحجمه الضخم الرهيب العجيب، يشمخ برأسه بعنف فوق الرمل. نحو الشرق، كما لو انه يناضل من اجل ان يكون اول من يدرك كنه الشمس لقد مات بالامس، وانحدر الى الظل، وهو اليوم يأمل ان يعود للحياة مرة اخرى كى ينهض بكل عظمته وقوته من الصحراء الليبية، وقلوب النباتات والبشر الدافئة.

انه أقدم تمثال فى مصر منذ اكثر من اربعه الاف سنة من ميلاذ المسيح. انه يسمو فوق الرمال، منتظراً اشراق الشمس كل صباح بالم شديد، انه باللون الاحمر، شفتاه كبيرتان حسيتان شهوانيتان، كشفتى الفلاح. وهناك مناخ من القدرية والرعب فى هذا الفضاء الواسع المحيط به، وهو تبدو عليه سيماء الهدوء والرزانة.

عيناه مفتوحتان على وسعهما، تحدقان بانجذاب صوفي، وتنظران برعب الى هذه الصحراء.

حين دفن فى الرمل الى رقبته، كان رأسه يوحى بالرعب، كنذير على قدر الانسان الذى سيقع. ولسوء الحظ فقد نظفوه الآن من الرمل، وحرروا جسده الذى يشبه جسد الاسد، واقدامه الطويلة الممدودة، المعبد الذى بين اطرافه. وبدا لى ان هناك صيحة نجده واستغاثة سوف تنطلق من صدره! «النجدة، النجدة ياابنائى، انقذونى من هذه الرمال!!»

هكذا كان ينادى على الناس منذ الاف السنين وكان الناس دائماً يحررونه ويطلقونه، لكن الرمال كانت تعود مرة اخرى وتغطيه. لقد ظلت الصحراء

تحاصره، وهى ستهزمه، ليس هناك اى خلاص، وهو يدرك ذلك، ولهذا السبب نرى الرعب فى عينيه والصرخات تنطلق منه.

اننى اتذكر أبياتا شعرية لشاعر مصرى معاصر املاها على «أبى الهول»:

-«يا من غربلت ذاكرة البشر بغربالك

تحدث، وضوىء دواخلنا بتعاليم التاريخ

الست انت الذى رأى مجد الاسكندر

وخزى قيصر؟

اما الآن فلا ترى عيناك سوى قرية متواضعة»

اما بالنسبة للانسان الذى اخترق هذا الاسئلة المتيافيزيقية التاريخية الفظة والقاسية، فان «ابا الهول» ليس الا ابكم، اطرش واعمى.

ان السؤال الذى لم يُسأل ابداً، ولم يوجد ابداً (أهذه هى حضاره الانسان، وغروره الاجوف؟) والاجابة ايضاً على هذا السؤال، لم توجد بعد!!

مصر العليا

دخلنا الى مصر العليا بالقطار، وكانت الجبال تتراءى امامنا عارية، وردية اللون، مقفرة، بالقرب من المكان، على الشريط الاخضر الضيق، للأرض المأهولة على طول النهر، كان الزنوج يصرخون وهم يلوكون الذرة بنهم، ويرفضون الماء من النهر بالروافع. وحين كنا نعبر المكان، قامت فتاة صغيرة برفع ملايتها، ولفتها حول خصرها بحركة راقصة.

كانت بيوت الفلاحين متناثرة على طول الطريق، وكانت سطوحها المستوية مغطاة بطبقات من الذرة الصفراء التي تركت لتجف تحت الشمس. وكانت الشالات السوداء والحمراء تتدلى من ابواب هذه البيوت التي لاشبابيك لها، والمصنوعة من الطين والقش، والتي ينام فيها الناس والبهائم جنباً الى جنب في احد المخازن الصغيرة كان هناك طفل رضيع ميت. ترك مرمياً في ذلك المكان القذر، فوالداه مايزالان يعملان في احد الحقول، الرجل يحرث الارض، والمرأة تتبعه لتلقي البذار خلفه. فيوم العمل لم ينته بعد، وهما ينتظران حلول الظلام كي يتمكنا من دفن ابنهما. كان جسد الطفلة الرضيعة النحيل الاسود، بذراعيه الممدودتين، ورأسه المنتفخ المتضخم الملقى في الخندق الصغير يبدو لي وكأنه يحفر الارض. لان به رغبة عارمة للعودة اليها.

هنا مايزال الغطاء الاخضر محافظاً على ضيقه ومحدوديته. فعلى بعد خطوات قليلة للامام يمكنني تبين حدوده. من مكان لأخر يمكن مشاهدة شجرة نخيل او شجرة اكاسيا شوكيه مزهرة، او بعض اشجار الصبار ذات الاوراق الشوكية المسطحة الضخمة، وهي آخر الاشجار البطلة اليائسة التي بقيت من هذه الحياة الخضراء. ان قلب الانسان يرتعش فخراً واحباطاً، فكل شيئ هنا يأخذ رمز القيم الانسانية الجبارة، لانه لايوجد اى مكان في العالم، كهذا المكان في مصر، التي تستطيع فيه ان ترى الحياة امامك بوضوح، حياة كأنها جزيرة صغيرة مشيدة في محيط الموت اللامحدود. جزيرة مصنوعة من الماء والتراب واللحم البشري، والدموع، حيث تعي بدقة، وانت تنظر الى الحدود، هنا في مصر، لاجدوى شجاعة الانسان وكدحه وألمه.

وصلنا الى طيبة «الديوسبوليس» العظيم، الاعمدة المئة لـ «هوميروس» فى عاصمة الفراعنة الضخمة العظيمة. وهى الآن مدينة صغيرة تعيش على الاف السواح الذين ينتقلون اليها بالقوارب او القطارات.

وكان السياح يمتطون الجمال، والحمير، ويتعلقون بايدى الاولاد السياحيين ويطلقون بعض الصيحات غير المفهومة، «اووه»، «آه»، وينطلقون يذهبون الى المعابد، وينزلون الى المقابر، وينظرون دون ان يروا شيئا، وهم يلبسون نظاراتهم الزرقاء المعتمة.

لقد قمت بزيارتى لمعبدى «الاقصر» و«الكرنك» فى وقت مبكر من الصباح، قبل ان يستيقظ السواح. ودرت حولهما مثل الحشرة الصغيرة التى تفقد احساسها تحت هذه المعابد الضخمة، كل هذه الاشياء الضخمة تبدو غير مفهومهة لى، ويغيضة الى نفسى.

هناك ممر، طوله كيلومتران، يصل بين معبد الاقصر ومعبد آمون «الكرنك» عرضه ثلاثة امتار، مبلط بالحجارة اللوحية، ويحيط به من اليمين ومن الشمال الف مخلوق من مخلوقات «السفينيكس» الخرافية ذات الرؤوس الحيوانية. اما المذبح- مكان تقديم القرابين- فى معبد «الكرنك»، وهو المكان الذى لايسمح الا للملك بدخوله، فيبلغ طوله مئة وثلاثة امتار وعرضه اثنان وخمسون متراً، اما ارتفاعه يبلغ خمسة وعشرين متراً. وهو مزود بمئة واربعة وثلاثين عموداً، اما بقية المعبد فهو مزين بالتماثيل الغامض يبلغ ارتفاعها حوالى عشرين متراً.

اما النقوش البارزة العظيمة، فهى تصور الفرعون وهو يشد قوسه، والاسرى المقيدين بالسلاسل من رقابهم، وهم يرفعون اذرعهم، والالهة وهم فى مشهد النزول على الملكات ليصنعوا معهن الورثة. وفوقهم تحكى الحروف الهيروغليفية سر هذا الاتحاد الغامض، حيث تقول المرأة:

«لقد اتحدت روحك مع روحى، واخترق بهاؤك جوارحى، واصبحت قطرات نداك المقدس ولداً ملكياً فى جسدى»

ويجيب الإله:
«كم كنت ممتعة لي».
لقد فكرت ملياً بتلك السلالات العظيمة ، حين سمح للاجانب بزيارة مصر والتجول فيها على هواهم، ياله من منظر مدهش، هذا المنظر الذى يمتد امام عيون الاغريق البسيطة الوادعة! هؤلاء الاغريق، الذين ولدوا فى مدن صغيرة، او عملوا باستمتاع، وجعلوا ارواحهم تتآلف مع ذلك الحيز المادى الضيق المحدود. فجأة جاءوا ليجدوا انفسهم وجها لوجه مع هذه الآلهة الهائلة العظيمة والاعمدة العملاقة وجحافل العبيد البشرية التى تعمل دون ان تفكر بالتمرد او الثورة. وتضع هذه الحجارة الضخمة حجراً فوق حجر، فى محاولة جاهدة منها للامساك بالروح.
لقد كانت مصر زهرة عباد شمس مظلمة، اتجهت نحو شمس الدياميس الارضية، نحو إلهة الموت «اوزيريس». ان تماثيلها، رسوماتها، خطوطها الهيروغليفية، معابدها لاتقدم اية رؤى جمالية بل هى اشياء فرضتها الضرورة القصوى.
لقد كانت هذه التماثيل هى مركز القوة السحرية المشدودة الى روح الله، او الانسان الذى صوروه وارغموه على الاستقرار فى ذلك المكان. وهذا هو السبب الذى جعل هذه التماثيل التى تملأ المعابد، لم تأخذ ذلك الطابع الرومانسى المثالى، وانما كانت شديدة الواقعية، بحيث انها تحاول رسم كل تفاصيل الميت. وذلك من اجل ان تكون الروح قادرة على تمييز جسده، للحلول فيه مرة أخرى والنجاة مرة أخرى. ومن هنا كانت الزخارف المزيفة تعتبر اثماً وخطيئة.
لقد قدس الكهان الماء، وغسلوا التمثال، ومسحوه بالزيت، ونحتوا اشياء غريبة عليه، وجعلوا عينيه تبصران، وفمه يأكل، واذينه تسمعان.
لقد ركبت متن السفينة ونشرت الشراع، وعبرت مع اثنين من الزنوج الى ضفة النيل الاخرى، كى اشارك فى احتفالات «النيكروبوليس» مدينة الموتى، فى وادى الملوك.

جبل رمادي قاحل وموحش، ووهاد عميقة شديدة الانحدار ملتوية، تعبر شعابها، وقد تركت نفسي تغوص فيه لعدة ساعات. اخذت ادور والف وانا لااستطيع فهم ماأرى مثل تدويم عقل اله الموت. كنت اتذوق طعم الرماد يتسلل الى اعماق حنجرتي، لاتوجد اية نقطه من الماء في أي مكان، ولاتوجد حتى اية ورقة خضراء، لم يكن هناك سوى طائر رمادي وحيد عبر المنطقة للحظة، اعتقد انه صقر حوم حول المكان بهدوء مرتين او ثلاث مرات ثم تلاشي.

لقد كرست هذه الضفة الغربية بكاملها للموت، لقد حفروا اعماق الصخور من اجل دفن مومياءاتهم، فقط مثلما نقوم نحن بدفن بذور الحنطة كي تنمو وتعود للحياة ثانية، والآن ونحن نحفر، نجدهم ملفوفين باكفانهم وايديهم متقاطعة منذ الاف السنين وينتظرون، الملوك والعبيد، القديسون والقتلة، الكهنة والراقصات، كلهم ينتظرون ارواحهم.

لقد دخلت الى قبر امنحوتب الثاني، الذى مات عام ١٤٢٠ قبل الميلاد، كانت الحرارة خانقة، والاضواء متواصلة واستطعت ان اتبين الصور على الجدران، وآلهة على شكل صقور، قارب الموت، قرابين الجنازات، والهة الخلود، التى نراها على كل الاعمدة تكشف عن صدرها وترضع الملك، وهناك نباتات وحيوانات متعددة الالوان، وعلى الحائط الاصفر تبدو السطور الهيروغليفية لـ «كتاب الحادس» اما السقف فهو عبارة عن سماء لازوردية بنجوم صفراء، وفى الاسفل، فى غرفة عميقة سرية، تستلقى موميا ء الملك بسلام، وهى تزال مزينة بزهور الجنازة.

حاولت التعمق فى المكان، وتسكعت حول مقابر الملوك الى ان هبط الليل. لم اكن افكر فى الموت، بل فى الواقع، كنت امتع نفسى بالحياة التى تتفجر امامى من جدران المقابر. انها تنقض كما لوانها قد احسست للتو بالضوء مرة أخرى، وبالعينين الناريتين اللتين تشاهدانها، وتعيدان الحياة اليها من جديد.

فى كل مكان حول الجسد الميت، رأيت الحياة تكشف عن نفسها. الرجال

يحرثون، يرعون الماشية، يصطادون الحيوانات، يصطادون السمك، ويسافرون على طول النيل والنسوة يطحن الطحين ويعجن العجين، ويوقدن النار، واخريات يقمن بتزيين انفسهن، يرقصن، يعزفن على العود، ويشممن الزهور. اما الملوك النحيلون الشاحبون فهم يحملون مفاتيح الحياة على صدورهم، وسيدات القصر يجلسن في الصالة وعبيدهن العراة الطوال مثل الزنابق، ينحنون فوقهن ويقدمون لهن الازهار والفواكه المحمولة على اذرعهم الممدودة. وفتاه راقصة، بشعر اسود فاحم غزير، تحني ظهرها كلياً للخلف وبيديها تلمس الارض، تثني جسدها على شكل قوس. ولهذه الراقصة غنى الشاعر القديم هذه الكلمات الملتهبة التي ماتزال محفوظة لنا على اوراق البردي الصفراء.

«ايها الجسد الذي يحمل الفرح، ما اعذب شذى عطر حجرتك. فمك خمرة مسكرة، الذ واشهى من فواكه كرومنا، واكثر عبيراً من زهور حدائقنا وقت ازهارها. من الافضل ان يكون المرء معك، الى جانبك، على ان يأكل حين يكون جائعاً، او يرتاح حين يكون تعباً».

وغالبا مايكون على جدران هذا المدافن الارضية توهج الحكمة، وعذاب الكلمات. احدى الصور ترينا احد« المراكبية » وهو يسافر على طول النيل، ورجل عجوز على الشاطئ، وتحت الصورتين كتب هذا الحوار الموجز:

- **«تقدم ايها الرجل العجوز، سر على الماء!»**
- **«اخرس!»**

وفي مكان آخر امرأة تعجن، وتحت الصورة كتبت هذه الكلمات:

- **«اعجني جيداً، بقوة!!»**

وهناك عبيد يغسلون الاباريق، ويملؤونها بالخمر ويختمونها بالشمع وتحت الصورة كتب بحروف هيروغليفية:

«نظفوها جيداً، إملأوها بالخمر البارد، واختموها»

وفي مكان آخر، امرأة عارية ترقص، وآخرون يجلسون متربصين يعزفون على

آلة الفلوت، وكتب تحت الصورة:

«الحياة جميلة، الرقص جميل، والغناء جميل»

وفي صورة اخرى، نرى الملك خارجاً في رحلة مع بناته السبع، في العربة الاولى هناك ثلاثة: الملك زوجته، وابنته الصغرى، وفي العربتين الاخريين تجلس بنتان من بنات الملك، الكبرى تمسك بالزمام والصغرى تنحني وتتعلق باختها، وخلفهم العديد من العربات التي تحمل الندماء، العبيد، القرود، الطواويس. وعلى ظهور الخيول يبدو الثراء الكبير، الوان حارة، طيلسان ابيض، ودوائب من ريش النعام.

باي سحر، باية جدية، وباية قوة تتموج كل هذه الظلال في الظلمة! كما لو انها تعيش وتسود في مكان بعيد جداً وانا اراها لكنني لااستطيع سماعها

على الاحافير المرسومة، تنهض هذه النسوة القديمات والزهور على رؤوسهن، ويزهرن في اخاديد عقلي. اما اعباء الحياة اليومية، وكل الموتى، وعذاب العمال، فأنه يموج بالحياة داخلي، وتمزقني هذه الفظائع الرهيبة.

وبدأت افكر، اذا اندفعت عنوة عبر باب ذاكرتي، فسوف اتذكر انني انا الذي غنى الاغنية للفتاة الراقصة، وانني انا الذي انحنى وجر الحجارة وصرخ وهو يتلوى من الجوع، وانني انا الذي يبلغ من العمر مئة عام، الذي تسلق وتسلق بقلبه الضعيف، ثم سبح عكس تيار النهر.

اثناء نزولي الى «الحادس» عثرت على المنابع الخفية الغامضة للنهر، الماء الابدي، حين مددت يدي الى القبر، شربت فتجددت مفاصلي، ثم صعدت ثانيه الى الارض، وانا اطوح بذراعي في الهواء، مثل المجاديف، اطوح بهما مرة اخرى عكس التيار.

كانت الدنيا قد اظلمت حين خرجت من ذلك القبر الشهير لـ «توت عنخ امون» في الصخور البادية امامي تفغر المدافن الملكية افواهها الضاربة الى الزرقة، والجبل الرمادي يتحول للحظة من اللحظات الى اللون القرمزي.

كنت متعباً لقد اعطيت الكثير من دم قلبي من اجل ان اعيد هذه الظلال الميتة

الى الحياة، وان اتمتع قليلاً. وبذلت جهدى لتحقيق مالا أمل فيه ولم يبق سوى ظلين، من هذه الظلال لم يكونا يريدان مغادرتى، لقد عرفا اننى قد احببتهما حباً جما. ولايوجد اى شيئ فى العالم اكثر حاجة للحب، من الميت.
وهذان الظلان اللذان تبعانى على طول الطريق من وادى الموت الى النيل هما الملك «امنحوتب الرابع» -اخناتون- وزوجته نفرتيتى، لدرجة اننى لم اشعر بالحب تجاه الناس الاحياء، كما شعرت به تجاه هذين الزوجيين الملكيين الغامضين اللذين عاشا قبل ١٣٧٠ عاماً قبل ميلاد المسيح. كان جسد «امنحوتب» قد لوحته الشمس، لقد كان مستسقى الرأس، بفك ناتئ وجبهة عريضة، وانف خطا فى طويل وشفتين حسيتين ممتلئتين، وجبهة نحيلة عليلة، واكتاف واهنة، والصدر صدر اسد، والقدمان قدما أمرأة.
لكن فى هذا الجسد- الذكرى الانثوى- المشوه، تسكن روح مولهة لاتعرف الخوف، لقد هيأ نفسه لغرض، انه يريد الاطاحة ب«أمون» الاله القادر على كل شيئ فى مصر، ويخلعه عن عرشة. ويضع مكانه الاله «آتون اله الشمس. كان مايزال فتى فى الخامسة عشرة من العمر حين ورث العرش. وقد قام مباشرة ببناء مصلى من الجرانيت الاحمر فى وسط اقدس معبد لـ «آمون» فى «الكرنك» وكرسه لاله الشمس.
فى البداية صور اله الشمس على شكل جسد رجل ورأس صقر. وفوق رأسه قرص نارى متوهج لكن عبادة الولد الصغير اصبحت غير متجسدة. بلاجسد انسانى وبلا رأس صقر. ولم يبق سوى ذلك القرص القرمزى المتوهج، حيث تنتشر الاشعة كالمروحة، وتتدلى فوق الارض، وتنتهى على شكل اذرع وتعانق جسد الملك وزوجته نفرتيتى.
وهذا الرمز- شمس باذرع طويلة تعانق العالم- قد اتخذ رمزاً للديانة الجديدة.
- «أيتها الشمس، ايها الاله الوحيد الذى له اذرع لاتحصى ولاتعد ويمد اذرعه لاولئك الذين يحبونك»
وهناك ترنيمة اخرى تمجده:

«مرحى ياأجمل آلهة النهارا شعاعك يأتى- ونحن لانعرف كيف- من فوق رؤوسنا. ان لمعان الذهب لايصل الى درجة لمعان شعاعك، وانت تدورين فى السماء، يشاهدك ويراقبك كل انسان، وحين تذهبين الى تلك الضاحية الخفية المظلمة يصلى لك كل انسان».

لقد اعلن «امنحوتب» حرباً لاهوادة فيها ضد دين «آمون» القديم وكهنته لقد ازال كل تماثيل الآلهة القديمة من كل المعابد، ومحى اسمه من كل اللغة الهيروغليفية. واخذ المتعبدون الجدد يتسلقون قمم المسلات الحجرية، ويهبطون الى اقبية القبور المظلمة، كى يعثروا على اسم لصورة «آمون» كى يحطموه. وبهذه الطريقة فقط، أى بتحطيم الجسد المرئى، كانوا يعتقدون انهم يستطيعون طمس روح الاله.

«توت عنخ امون»، الملك الذى جاء بعده، والذى تزوج احدى بنات «امنحوتب» واعاد الديانة القديمة من جديد، يروى ذلك ويقول:

«لقد اصبحت المعابد حقولاً، وكذلك الطرق إلى المذابح التى يعبرها الناس الآن، واشاحت الالهة بوجوهها عن الارض، وحين يناشد الاله ويتوسل اليه فانه سيعود وحين تناشد الالهة ويتوسل اليها، فانها ستعود ايضاً. ان روح الآلهة قد حلت فى جسده»

اما «امنحوتب» فقد تنازل عن اسمه لـ «اتون» بطريقة مختلفة، فقد أطلق على نفسه اسم «اخناتون» أى «مجد الشمس». وهجر مدينة «طيبة» مدينة «آمون» وبنى مدينة جديدة قرب التل الذى يعرف اليوم ب «تل العمارنة» بين «طيبة» و«ممفيس» وسماها «اخيناتون»، أى افق الشمس ولقد بنى المعابد والقصور، واقام الاحتفالات العظيمة ووزع الارض. وانشأ الوظائف العليا للمؤمنين، واعلن نفسه «النبى العظيم للشمس»، وممثل الله على الارض.

هذه الثورة لم تكن ثورة دينية فقط، بل كانت ابعد من ذلك، لقد كان لها

دوافع اقتصادية واهداف سياسية، لقد تحكم «اخناتون» فى كل ممتلكات «امون» الضخمة، وقيد سلطة رجال الدين وحد منها واخضعها للسلطة الملكية. وانشأ وظيفة عليا للفرعون العظيم والاله المقدس. وفى نفس الوقت ارتقى الى مرتبة الاله العظيم، اله بمرتبة الشمس، وليس بمرتبة ذلك المصرى النقى «آمون». وكانت الشمس تعبد من قبل جماعات مختلفة من أسيويين وافارقة وقد كان متاحاً امام الجميع، ممن ينتمون الى نفس الجنس البشرى او الى الاجناس البشرية الاخرى، ان تتعلم وتتثقف، وهكذا يصبح من السهل على الجميع ان يعترفوا بفضل مصر، وان يتقبلوا سيادتها، لقد فصل آمون «المصريين عن غيرهم من الامم الاخرى، اما اله «الشمس» فقد جاء كى يوحد بينهم

هذا الاصلاح الدينى والسياسى، اعطى نفساً جديداً للحياة الادبية والفنية خلال حكم «اخناتون» لقد تفجرت الثورة فى كل المجالات التى ولدت العقائد والقوانين ،والتقاليد. فى كل الاعمال التى ماتزال حية حتى الآن، نشعر بعواطف واضطرابات متأججة، وحب عنيف للحياة، واخلاص واضح، ومشاعر حارة.

وفى العمارة، كانت المداخل مفتوحة وطليقة، وكذلك الأمر بالنسبة للقاعات المظلمة والمذابح، التى كانت محجوبة عن اعين الناس الراقدين.

اما الفرعون عابد الشمس «ابو سنيت» او الصابىء فقد بنى معابد واسعة مفتوحة تدخل الشمس الى كل مكان فيها، وتنشر اشعتها عليها، وبنى ساحة ذات اعمدة، وفى مركز الساحة بنى مذبحا مفتوحا، ورمزاً مقدسا عبارة عن شمس «ارجوانية- قرمزية» تدور فى فلكها، وتشرع اذرعها التى لاتعد ولاتحصى. ولم تعد احتفالات الموت المظلمة تقام فى أى مكان، وعلى ارضية الساحة، وعلى الجدران، وفى كل مكان ، هناك طيور متعددة الالوان، انهار واسماك وحيوانات متقافزة واوراق اشجار تتراقص فى الريح.

لقد زالت تماثيل الله، فالاله الجديد لاجسد له، ولم يعد النحاتون ينحتون

الالهة، وانما تماثيل الانسان، وبشكل خاص الشكل الاسمى للانسان، الفرعون، ففى كل مكان وفى كل الاعمال التى بقيت لنا من عصر النهضة المصرية القصير هذا، لانرى سوى هذا الوجه الطويل، الحسى، الصوفى لـ «اخناتون» ونرى معه بشكل دائم زوجته الحبيبة «نفرتيتى» وهى امرأة طويلة، فاتنة، تنبض بالحيوية والرغبة، بذقنها الصلب الموشوم، وشفتيها الاسيويتين الشهوانيتين. وكثيرا ما كانت تصور عارية تماما وهى تقدم زهرة لزوجها. وهناك تمثال صغير لها وهى عارية مصنوع من الجرانيت الرمادى، وهذا التمثال يصورها وهى تسير برزانة، بخطوات واسعة وقبضتين مطبقتين باحكام، وعنق مشدود انيق، وعينين محدقتين تنظران الى الامام، تنظران بعزم وتصميم وقنوط وكأنها تتأمل بالصحراء.

لقد كشفت الحفريات الاثرية فى «تل العمارنة» عن مناظر واقعية منقوشة على الحجارة، لم يعرف مثلها من قبل، فلأول مرة فى الفن المصرى، نرى صوراً للحياة العائلية لم تكن معروفة حتى الآن. تصور الفرعون بكل ألفة ومودة فى حالة الفرح، وفى حالة الغضب الشديد. حيث تراه فى بعض الاحيان محفوفاً باذرع الشمس، وترى جسده ينبض بالفرح والبهجة، وفى احيان اخرى تراه يجلس على عرشه ويحتضن زوجته وكأنه يقبلها، ثم تراه مرة إخرى يجلس هو وزوجته معاً تحت اشعة الشمس، بينما تجلس بناته على حضنه ويلعبن.

لقد كان الحب للطبيعة قوياً جداً، وكذلك الحب للالوان، وفى كل مشهد من مشاهد الحياة فى هذه الاعمال، تسترجع بشكل زاه، ونابض الصور «الكريتية» التى تعود لنفس الفترة. وحين تأخذ بعين الاعتبار ان قصر «كنوسوس» الثانى « KNOSSOS » قد دحر فى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد وان الفنانين المهرة الذين صنعوه قد تشتتوا فى الاراضى الغربية فانك بلاشك سوف تشعر ان نفس الحياة الكريتية قد نفخ فى عصر النهضة القصير للفن الكهنوتى المصرى الراسخ.

وفجأة، وبينما كانت هذه الثورة الخلاقة فى قمة عطائها وتألقها، مات «اخناتون» الشاب، ونحن لانعرف شيئا عن وفاته، سوى هذه المعلومة البسيطة: لقد امرهم انه مهما كان المكان الذى سيموت فيه، يجب ان يدفن فى عاصمته الجديدة الحبيبة الى قلبه، لكن قبل سنوات قليلة وجدت مومياؤه- فى النكروبوليس» مدينة الموتى فى طيبة، الى جوار مومياء امه «تى» والى جانبهما ايضا وجدت ايضا بعض النقوش الجنائزية من التابوت المفقود للملكة نفرتيتى.

لقد سرقت معظم الحلى الثمينة الخاصة به، ولم يبق من التابوت، سوى جسده المحنط بحجمة، وهيكله العظمى. لم يخلف ولدا ، ولم يعش اى عمل من اعماله من بعده، وقد نقش اتباعه هذه الصلاة على الحجر، بلاجدوى:

«ربما يعم عملك ويسود، حتى تصبح البطة سوداء، والغراب ابيض، سيسود طالما ان الجبل مايزال ثابتا. والماء فى النهر لايعود الى الوراء!»

اما «توت عنخ آتون» النسخة الحية من «آتون»، وهو صهر «اخناتون» ووريثة، فقد خضع للدين الجديد، واطلق على نفسه اسما جديدا هو «توت عنخ امين» واعاد العاصمة مرة اخرى الى «طيبة» واعاد ثانية «آمون» الى قمةالعبادة

لكن هذه الروح الجديدة، استمرت فى اعطاء الحياة للفنون لسنوات عديدة، وحين أكتشف قبر «توت عنخ امين» فى السنة ماقبل الماضية، ذهلت عيون الرجال بالذهب، والفتنة والسحر والنعم، والروح المتجددة للتمثال، والرسومات، والاثاث، والحلى الموجودة فى القبر، لقد ترك لنا ذلك الملك الشاحب، والنبى عملا خالداً آخر. فقد كان شاعراً، وقد كتب انشودة مثيرة للمشاعر للشمس، وجدت فى قبور «تل العمارنة» تقول الانشودة:

« لقد اشرقت فى الافق يا«اتون» ياواهب الحياة!!

حين تشرق بتوقيت منتظم فى الافق تملأ الارض بجمالك

وفتنتك!
انت جميل وعظيم، زاه ومتألق وسام فوق كل هذه الارض.
واشعتك تعانق العالم، وكل الاشياء التى خلقتها
انك بعيد جداً، ومع ذلك تلمس اشعتك وجه الارض.
وحين تنزل بدعة واطمئنان كى تستريح فى السماء الغربية تغوص الارض فى الظلام ، وكأنها تموت. حيث ينام الناس وهم يغطون رؤوسهم، ولاتعود العين قادرة على رؤية العين الاخرى. وتستطيع ان تسرق كل الكنوز التى خبأوها تحت فراشهم، دون ان يشعروا بك. ان العالم كله ينام لأن الذى خلقه قد هبط لينام.
لكن الفجر يجئ، وتبزغ على الافق متألقا متوهجا وتلقى باشعتك فتختفى الظلمات، وتنعش الارض ويهب الناس واقفين على اقدامهم. انت الذى انهضهم، انهم يغسلون اجسادهم، ويرتدون ملابسهم، ويرفعون ايديهم بالدعاء لك. وتعود الارض لسيرتها اليومية من جديد.
يجد القطيع سعادته فى الرعى، وتجد الاشجار والازهار سعادتها فى النمو وتجد الطيور سعادتها فى الطيران من اعشاشها وتسبيحك باجنحتها، وتقفز كل الحيوانات البرية، كل المخلوقات التى تطير وكل الحيوانات الزاحفة تعود للحياة، لانك تشرق فوقها.
السفن تجرى مع التيار، وعكس التيار، وكل الطرق تفتح لانك ظهرت
السمك فى النهر يقفز فى الهواء، لان اشعتك تغلغلت الى اعماق البحر.
لقد وضعت البيض فى رحم النسوة، وخلقت البذور فى الرجال،

وانت الذى يجعل الطفل ينمو ويترعرع فى بطن امه، وتهدهده حتى لايصرخ. يالك من مربية رقيقة داخل المرأة.
وحين يولد الطفل، فانك انت الذى يفتح فمه كى يتكلم، وانت الذى يرى أنه يأكل ويشرب
أنت الذى تنفخ الروح فى الصوص الصغير المحبوس فى البيضة وتعطية القوة كى يكسر جدران البيضة وهو يندفع من البيضة ويبدأ فى السقسقة، ويقف على قدمية، لانك انت الذى شحنتها بقوة الارادة.
ما أكثر اعمالك واعظمها! بعضها مخفى عن عيون البشر، ولا خالق موجود الاك.
لقد خلقت الارض حسب مشيئة قلبك، لقد خلقتها انت وحدك ببشرها وحيواناتها بالمخلوقات ذات الارجل، التى تسير، بالمخلوقات ذات الاجنحة التى تطير وانت الذى وضعت كل انسان فى مكانه، واعطيته كل مايريد، لغات عديدة، قوانين عديدة، وبشرات بالوان عديدة.
اشعتك تنعش كل أرض، وحينما تشرق، تنهض كل مخلوقاتك وتنمو.
انت تشرق، وانت تغيب، ثم تعود ثانية.. لكنك هنا فى قلبى
لا احد يعرفك كما اعرفك انا ابنك، اخناتون الذى جاء من جسدك، ومن زوجتك الملكة «نيفر- نيفرو- اتون» نفرتيتى».

الحياة المعاصرة

لقد عدت الى المدن الحديثة المشدودة. بعد ان رأيت الظلال. ودفعت الجزية للموتى. قليلاً من الدم. واستردت مارهنت.

فى البداية كنت قد قررت الا اذهب لرؤيتهم ابداً. فقد كنت معنياً ومهتماً بما يمكن ان يقوله الاحياء، كيف تواجه الروح المصرية هذه الايام، صراع مابعد الحرب. كنت اعتقد، ان هذا فقط هو ما يعنينى. لكن بعد اول لقاء لى مع الحيوية، والجلبة، لوجه مصر الجميل، غمرنى شعور باللذة، ونهض أمامى صوت ملوع من الارض، وامسك بى. كان الموتى يصرخون، انهم ظامئون، ويريدون العودة الى الحياة، حتى ولو للحظة واحدة فقط، ان يدخلوا الى هذا القلب الذى مازال دافئا، ونابضا تحت الشمس.

والناس الذين يؤمنون بالفكرة، ينقسمون الى ثلاث فئات:

الفئة الاولى، هى الفئة التى لايعنيها جمال الماضى، لانها لاتعرف شيئا عن ذلك الماضى، ولاتفهمه، فهم لم يسمعوا صوت حورية البحر، وبلا خوف من الضلال يخوضون غمار معركتهم اليومية بقوة وعزم وتعصب وانتاجية

الفئة الثانية، وهى فئة من الناس الذين يحبون جمال الماضى، ويفتنون بكل وجوه الحياة، ويعرفون ان الوجه الاخير- الفكرة المعاصرة- هى ايضا شبيهة بافكار الماضى، فهى فكرة نسبية وسريعة الزوال. وهم اناس لهم دراية

وعلم، قلقون حسيون يضمون ايديهم الى صدورهم وينصتون الى حورية البحر.

الفئة الثالثة، وهى فئة من الناس الذين يعرفون ويحبون جمال الماضى، وخلال اللحظات المرعبة المشدودة القصيرة، يفتنون بالاغنية القديمة، الا انهم ينتزعون انفسهم ويبتعدون عنها ويكملون الرحلة، وهم يحملون حورية البحر فى ذاكرتهم. وعند الضرورة يعلنون عن الحقائق المعاصرة النسبية مباشرة، ويتابعون النضال مثل الفئة الاولى ،بعد ان يستمتعوا للحظات مثل الفئة الثانية.

لقد عدت الى القاهرة، الى القلب النابض بالحيوية فى مصر الحديثة، وكنت انطلق من الصباح حتى المساء، لارى رجال المال، ورجال السياسة. ورجال الصحافة، المثقفين، انهم رجال متحمسون، ماكرون، وطنيون، وماهرون فى التحايل، وقد حاولت ان اطلع على الامور بقدر مااستطيع. ماهى الدوافع التى يتذرعون بها لاعادة انبعاث مصر الحديثة؟ كيف يستطيع العقل الشرقى ان يهضم ويتمثل الافكار الاوربية؟ والاهم من ذلك، ما الذى ستتركه حمى مابعد الحرب على ضفاف النيل، وماهى الصلة والعلاقة بين هذا الأمر، وبين الحقيقة الواقعية الرهيبة والجهولة لعصرها، الاوهى حقيقة استيقاظ الشعوب الشرقية؟

ان كل اسيا، الصين، سيام الهند الجزيرة العربية، سوريا، فلسطين، وتركيا، هذه البلاد كلها فى حالة مخاض وكل شمال افريقيا تستيقظ هى الاخرى، وكل البنى الاستعمارية الاوربية تتزلزل. اذن ماهو دور مصر الخاص فى هذا النهوض الخطر والمصيرى فى العالم الشرقى؟

لقد كنت اتحدث مع مثقف مصرى متميز، فقال لى:

«اذا اردت ان تفهم مصر اليوم. يتوجب عليك ان تضع فى تصورك بشكل واضح، ان تاريخ مصر الحديث ينقسم الى مرحلتين اساسيتين: من محمد على حتى الحرب الاوربية، ومن الحرب الاوربية حتى الوقت الحاضر.

محمد على هو الاب الشرعى لمصر اليوم، انه رجل البانى ولد فى «كافالا» وقدم نفسه كموظف فى مصر، ثم اصبح باشا فى عام ١٨٠٥ وقد واتته الفرصة اثناء ضعف الدولة التركية عام ١٨٤٠، ونجح فى تحقيق حكم ذاتى موسع لمصر.

كان يتملك روحا عظيمة، وعقلاً متنوراً. ففتح مصر للحضارة الاوروبية، ودعا مخططين ومنظمين اجانب، فاعاد بناء الجيش، ونظم التعليم والزراعة، وارسل مبعوثين مصريين من الشباب ليدرسوا فى اوروبا. لقد بعث نفسا جديداً ديناميكيا فى حياة وارض مصر. محمد على هو «بيتر العظيم».. بالنسبة لمصر.

اما اكبر اولاده ووريثه على الحكم فهو اسماعيل، وهو رجل موهوب، معتد بنفسه، ومبذر، لقد انجزت مصر الحكم الذاتى الداخلى بشكل كامل عام ١٨٦٦، اما بالنسبة للمسائل الخارجية فقد سمح لمصر ان تبرم اتفاقيات تجارية، وعقود ديون، واخيراً وفى عام ١٨٧٣، سمح له ان تدخل الى كل العلاقات والميادين الخارجية على الا يلحق ذلك ضرراً بالمعاهدات السياسية التركية على اى حال، وبسبب هذا الاسراف المفرط، زاد اسماعيل الدين الوطنى لمصر فى عام ١٨٧٦، حتى وصل ذلك الدين الى واحد وتسعين مليون جنيه ،مما جعل بريطانيا وفرنسا، وهما من اكبر الدائنين، تخضعان مصر لمراقبتهما الاقتصادية وقد اجبرنا على القبول بالضغوط بالاجنبية مما جعل الوظائف العليا فى مصر تسقط فى ايدى الانجليز.

ثار الناس وقام عرابى باشا وهو رجل وطنى متحمس وجرئ، ونظمه ثورة وطالب بان يخرج الاجانب من البلاد، وان تشكل حكومة برلمانية وقد قتل العديد من الاجانب وتحصن عرابى بالاسكندرية. مما جعل البحرية الانجليزية تقصف المدينة وتنزل عليها قواتها.

وهكذا بدأ الاحتلال الانجليزى، وقد فعل هذا الاحتلال العديد من الامور الجيدة، لقد جاء بالقوانين، ونظم الخدمات وصمم على العمل من اجل انجاز

نظام اقتصادى جديد لكن الشعب المتنور كان ينظر دائما الى الغرباء بنفاذ صبر، وكان يريد ان يتخلص منهم، كى يصبح سيد وطنه.

وفى عام ١٩٠٠، ظهر رمز قيادى فى مصر، فقد ظهر كل المتحمسين والمثقفين على الساحة السياسية فى مصر، وظهر مصطفى كامل، الذى شكل الحزب الوطنى، وكان يرمى من وراء تشكيل هذا الحزب الى تحرير الامة المصرية

وكانت حملة اعلامية كبيرة فيما يتعلق بحقوق مصر قد نشطت فى الخارج، وقد اجتمع مجلس الحزب فى بروكسل عام ١٩١٢ واعلن استقلال مصر. والحرب ضد محبى الانجليز، والاقباط الذين كانوا يعتبرون فى ذلك الوقت ادوات فى ايدى انجلترا.

لكن كل هذا النشاط، وكل هذا الاندفاع نحو التحرير. كان مقتصرا على دائرة ضيقة من المثقفين المصريين، اما الشعب، والفلاحون فقد ظلوا غير مبالين، اذ انهم لم يكونوا على تماس مع القضايا المجردة المتعلقة بالطبقة المتعلمة. بل على العكس من ذلك فقد كان الفلاحون راضين لان الضرائب ضبطت ونظمت ووزع الماء بشكل عادل، ولم يستيقظ الفلاحون الا بسبب الحرب الاوربية فقط».

وانطلق رفيقى يشرح بفكر صاف مشكلة مصر، ليس المشكلة السياسية والاقتصادية فقط، وانما مشكلة حضارتها بشكل عام.

«الثقافة الاوربية التى ادخلها محمد على وخلفاؤه بشكل كبير لم تخرج من اوساط عامة الشعب، ولم تكن نتيجة قناعاتنا المحلية او عقليتنا الشرقية الخاصة. وهكذا فان ثقافتنا الآن ليست اكثر من ثقافة تابعة ومقلده.

وهذا هو السبب الذى جعلنا عاجزين عن خلق وابداع اى شيئ، لا فى المجالات العلمية ولا فى المجالات الفنية، ان عملنا الاصلى والاصيل هو اللاهوت.

لقد قلدنا الثقافة الغربية تقليد العبيد التابعين. وفغرنا افواهنا تجاه كل

شيئ قادم من اوروبا، نحن ايضا نتبع الضرورات العالمية المعاصرة. هناك رياح جديدة تهب على حياتنا قادمة من بريطانيا وفرنسا...

نحن ايضا لنا مفكرونا الذين يقولون بالمساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا، ولنا كتابنا وشعراؤنا الذين تأثروا بفيكتور هوجو، والرومانسيين. نحن ايضاً لدينا عدد وافر من الترجمات للأعمال الاوربية فى العلوم، وعلم النفس، والقانون، الرواية والدراما.

لقد اتسعت دائرة الصحافة بشكل كبير، خاصة بعد الحرب وهذا يعود لسببين:

السبب الاول، هو ان الاهتمامات بالقضايا السياسية والاقتصادية قد اتسعت دائرتها هذه الايام.

السبب الثاني.. ان هناك الكثير من الناس الذين يستطيعون القراءة الان عام ١٩١٧، كان هناك حوالى ثمانية بالمئة فقط من الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة، اما الآن فهناك اعداد كبيرة من المدارس التى تقوم بتأدية خدماتها، والدراسة فيها الزامية.

هناك خمسمائة طالب ممن يرسلون الى اوروبا سنويا بمنح حكومية. من اجل دراسة الهندسة، والكيمياء والقانون والطب. وقد بلغت حصة هذه البعثات حوالى مئتى الف جنيه فى العام.

يجب ان نأخذ اقصى مانستطيع من المعرفة من اوروبا. فبفعل الضرورة، نجد ان المأزق الذى تعيشه كل الشعوب الشرقية، مأزق مأساوى: هل يريدون ان يوصدوا الباب فى وجه الحضارة الغربية، ويبقون متخلفين خارج اعتاب الحياة الحديثة، تلك الغنيمة السهلة لكل الشعوب المتقدمة. او انهم يريدون تقبل الحضارة الغربية، وعندها سيكونون مجبرين على تقليدها بشكل اعمى، ويلقون جانباً اساليب حياتهم البسيطة والاصيلة فى الاقتصاد والاجتماع والحياة الروحية.

ليست هناك طريقة اخرى.

فقط ، حين تسقط الحضارة الغربية، وحين تتلاشى بناها الرائعة وتتبدد، سوف يصبح بامكان العالم الشرقى ان يعود مرة اخرى. كى يقدم لاوروبا ماكان يقدمه لها دائما: البذور الجديدة. ذلك اننى لااعتقد ان كل الاديان التى تشكل البذور للعالم والتى شكلت رحم هذه الارض. قد جاءت بمحض الصدفة من الشرق. ذلك ان الشرق يختزن الجنون والنيران ، والغرب يقدم الغذاء ، والمصافى، والتحاليل التى تحيل اللهب الى ضوء.

حتى الآن ، هكذا يتم هذا التفاعل المرعب- ذكر وانثى- هكذا تقسم الحياة على كوكبنا والشرقى هو زوج اوروبا » كنا نسير تحت اشجار النخيل على ضفاف النيل ونتحدث، وكان كل صراع مصر الدراماتيكى لمرحلة مابعد الحرب مكشوفا امامى كيف استطاع الناس بفعل الصبر والعنف ان يستقيظوا ويخرجوا من ظلمة عبوديتهم، وكيف اخذ هذا الشعب يبحث ويتوقف للوصول الى التنوير والحرية.

لقد استطاع الفلاحون ان يفهموا عبوديتهم للمرة الاولى منذ الحرب العالمية. لقد ارسلوا اكثر مايزيد عن مليون نفس للحرب لقد صودرت حيواناتهم ومحاصيلهم، وعبئت كلها للحرب. وتحت التهديد اصبح اربعون الفا من الفلاحين عمالاً يعملون حسب حاجة جيش الحلفاء. فى نفس الوقت كان هناك هياج عظيم يختمر ويتجمع فى هذه الارض، كانت المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية لمصر تتغير. كانت هناك صناعات صغيرة تتطور وطبقة جديدة من الرأسماليين تظهر، والاسياد القدماء يسقطون، وبشكل مواز لهذا التطور، قام العمال الذين عملوا فى صفوف الجيش بتشكيل طبقة عمالية واعية لاول مرة فى تاريخ مصر. اضافة الى ذلك فقد عانى الفلاحون بشكل مرعب من الحرب، لقد قتلوا واخذت حيواناتهم وممتلكاتهم منهم واستبدل الموظفون المدنيون بالموظفين الانجليز، الذين كانوا يتقاضون رواتب عالية.

لقد انتهت الحرب، وانتظر المصريون انجلترا، كى توفى بوعدها، وتحرر مصر لكن انجلترا رفضت ذلك فانفجرت الاضطرابات، وشكلت الاحزاب الوطنية

المتطرفة، واجريت الانتخابات ثم الغيت بعد ذلك. هاج الناس وثاروا واخذت الارض تغلى وتضطرب ، واتحد الفلاحون والاقباط، وطالبوا بحريتهم، واجتمع الهلال والصليب معاً فى القاعات الجماهيرية والعطل الوطنية. كل مافرقه الدين ذات يوم، عاد الضمير والوعى الوطنى لتجميعه. وعبر الشعب العقبة الاولى من عقبات التحرر وهى عقبة الدين، وقد وصلوا اخيرا الى المرحلة الثانية، وليس المرحلة الاخيرة، مرحلة الأمة.

كنت اتحدث مع زعيم قبطى بارع ومؤثر قال لى: «هناك وسيلة واحدة للشعب كى يستيقظ، وهى الوسيلة الوحيدة من اجل تجديد اقتصاده، لدى مصر مساحات واسعة من الارض، وهذه المساحات يتملكها عدد قليل من الاقطاعيين. وهناك الملايين من الفلاحين ممن يعملون فى هذه الاراضى ويموتون من الجوع، فكيف يمكن ان نواجه هذه المشكلة؟»

عطس صديقى، فكررت السؤال «ماهى وجهة نظرك فيما يتعلق بمصادرة ملكية الارض».

فكر قليلا، بالطبع كان يفضل الاكون احد اولئك الحمقى الطائشين. بالطبع سيكون أكثر راحة لنا، واكثر بلاغة ان نقيد انفسنا بالكلمات العظيمة والجميلة مثل «الوطنية»، «الاخوة»، «الحرية» و«روح الفلاح». لماذا نتحدث عن جسده، عبث بالتلفون بعصبية وتوتر، ثم تركه، وقال لى بتصميم وحزم:

«مصر ارض غنية جداً، لدينا موسمان اوثلاثة مواسم للحصاد فى السنة. ان قطعة صغيرة من الارض تستطيع ان تطعم عائله بكاملها، وبسهولة»

- «اذن؟»

- «اذن يجب ان يتم ماأشرت اليه»

وتجنب الاشارة الى المعنى الدقيق والمحدد «مصادرة ملكية الاراضى».

- «يجب ان نكون على درجة من الذكاء هنا، فهناك أراضٍ موقوفة»

- «اذن؟»

«اعتقد اننى قد اجبت على سؤالك»

اجل لقد اجاب، وقد غادرته بقلب مقبوض، لقد كان مصير الفلاح، أخينا الفلاح، هذا الانسان غير المحظوظ، ذلك الشخص المحتقر الذى يعمل مثل الكلب ويموت من الجوع، لقد كان ذلك المصير يملأ قلبى بالالم، والسخط والمرارة.

العالم الاسلامى يستقظ، وبناء على اخر احصائية صدرت عام ١٩٢٣، فقد وصل تعداد سكان العالم الاسلامى مئتين وسبعة وسبعين مليون نسمة. وقد قدر على مصر ان تلعب دورا رئيسياً فى هذا العالم، فموقعها الجغرافى الذى يقع فى مركز العالم الاسلامى. واتصالاتها اليومية، وتماسها المباشر مع اوروبا وتقدمها السياسى المتسارع، والثورة الاقتصادية التى حدثت خلال السنوات القليلة الماضية، كل ذلك جعلها اكثر حساسية وتقدمية وجعلها تقف فى طليعة المعركة التى يخوضها العالم الاسلامى.

من المغرب الى الصين، ومن تركستان الى الكونغو، بدأ المسلمون الذين اصبحوا على اتصال مع اعدائهم الاوروبيين يدركون معنى الروابط الحميمة العامة التى توحدهم وهذه الروابط هى، الدين، التراث، والمصالح الاقتصادية

وبشكل بطئ ،لكن مؤكد، وبالرغم من العقبات، والفهم الخاطئ والمعوقات، نجد ان الوحدة المرعبة بين شعوب العالم الاسلامى قد بدأت تتجسد امام عيوننا، وهى قريبة جداً من عيوننا لدرجة اننا لانستطيع رؤيتها، وحين نرى شيئا فان هذا الذى نراه يكون جزءا صغيراً منها، وليس كلها.

فـ «مصطفى كامل» و«سعد زغلول» و«ملك الحجاز الجديد» و«لوثر الجديد» و«على جناح» زعيم المسلمين الهنود و«غاندى» زميله الحميم فى العمل. كل هذه الرموز ليست مجرد شخصيات ممتعة ومشوقة. انها شخصيات تعبر عن اختمار ثورة استثنائية مرعبة، انها الاصوات القليلة الواضحة التى اخذت تعبر عما كان يعجز عن التعبير عنه، اوصياغته العالم الشرقى الاسلامى.

اضافة الى ذلك، فان هناك فكرة جديدة، تسير جنبا الى جنب مع الدين،

وتحاول ان تشكل نفسها ، كى تحرك وتثير شعوب اسيا وافريقيا ، وهذه الفكرة هى الوطنية. لقد استيقظ الوعى للمرة الاولى لدى هذه الشعوب

ان الدين لن يظل قادرا على لعب الدور الرئيسى فى افعالهم. لان فكرة الوطنية الجديدة. تشحنهم الآن بالحماس، وتوحدهم

لقد استيقظت العديد من الشعوب الشرقية، والفضل فى ذلك يعود الى الحرب العالمية التى اثرت فيهم على النحو التالى:

١- ان استعمالهم واستخدامهم كادوات فى ايدى الاوروبيين اثار الحس الوطنى فيهم. لقد علمهم الاوربيون ان لهم حقوقا وانهم اذا ساعدوا الحلفاء. فان الحلفاء سوف يمنحونهم حريتهم بعد ان يكسبوا الحرب.

٢- ان الملايين من المصريين والهنود والسنغاليين والجزائريين قد جندوا للقتال فى صفوف الجيوش الاوربية وهناك تعلموا كيف يخوضون غمار الحرب الحديثة. وكيف يستوعبون بشكل كامل المعدات العسكرية الحديثة. كذلك فقد علموا اكثر من ذلك: ان يقتلوا الاوروبيين.

٣- ان هذا التماس اليومى مع الاوروبيين ، جعل الشعوب الشرقية تعرف الاوربيين بشكل افضل، لقد رأوهم عن قرب، ورأوا الكثير من دوافعهم التافهة، والخلافات التى تدور بينهم. وتضارب مصالحهم الذاتية، وهكذا لم يعودوا يخشونهم.

٤- لقد انتهت الحرب، وعادوا الى بلادهم وقد تغيروا بشكل كامل، واستيقظوا وتخصصوا بالمعرفة التكنولوجية وشحنوا بالنظريات الاعلامية الثورية، لقد عرفوا ان لهم حقوقا، ولذلك فانهم يطالبون بها ، لقد اصبحوا خميرة الثورة المرعبة بالنسبة لشعوبهم.

٥- اما الاوربيون، لم يفوا بوعودهم، بل لم يقدموا لهم حتى الحرية المجردة التى وعدوهم بها من اجل اغرائهم بدخول الحرب. بل لقد ذهبوا الى ماهو ابعد من ذلك، حين عملوا ضد مصالحهم الذاتية، واستخدموا اكثر من مرة وسائل الضعف من اجل اطفاء الشموع التى رأوها تنير ظلمة الجماهير

الشرقية.

لكن الضوء- وهذه هي طبيعته- يتعاظم من تلقاء ذاته. انه يتصاعد كي يصبح لهباً.

كذلك يمكن اضافة عنصرين اساسيين الى هذه الاسباب، كان لهما اسهامها في ايقاظ الشرق. وتوحيده ضد الغرب وهذان العنصران هما:

أ- ان اى فعل هذه الايام، في أي مكان كان على هذه الارض سوف يكون له صداه المباشر في القارات الخمس كلها. ان انتصارات الجيوش الشرقية فى المغرب او شنغهاي، تنقل مباشرة بفضل وسائل الاتصال الحديثة، وتصل الى كل الشعوب الشرقية حيث تشحنها بالحماس والايمان. وهذه الظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشرية.

ب- اما روسيا، فانها تقوم بتنظيم ثورة شاملة، تثير الشرق، وتنظم نشاطاته، وفعالياته، وتثير مشاعر الكره لدى الشعوب الشرقية ضد الرأسمالية الاوربية والامريكية انها تسخر الاشياء البسيطة لحملاتها الاعلامية. وتقول بانه يتحتم على كل الشعوب ان تطرد الرأسماليين الذين يستغلونها وان تصبح هى سيدة اوطانها.

وهكذا وبناء على هذه الاسباب الكثيرة والمختلفة كان يجب على الشعوب الشرقية ان تستيقظ، وعلى الثورة الا تهدأ وكما هو طبيعي، فقد لعب العنصر الاقتصادي دوراً رئيسيا فى هذا المجال ايضا لقد توسعت وتشعبت ضرورات الحياة بعد الحرب وتغيرت الظروف الاقتصادية بشكل كبير، وتقدمت الشعوب المتخلفة، بفعل الضرورة خطوات واسعة الى الامام.

انظروا الى مصر مثلا، فى فترة مبكرة، كان الاجانب هم المؤهلون لاستغلال الثروة، فى ادارة مشاريع مصر التجارية، او بناء مصانعها، او انشاء بنوكها، او القيام بالمشاريع التكنولوجيه الكبيرة اما الآن فان المواطنين المصريين، قد اخذوا يحلون محل الاجانب فى كل مظاهر الحياة الاقتصادية وهم يديرون ذلك بكفاءة عالية. وهم لايشعرون انهم لم يعودوا بحاجة الى

هؤلاء الاجانب فقط. بل انهم يشعرون بالكره تجاه المعوقات التى يصنعونها في طريقهم. ان الطبقة المدينية الجديدة التى ظهرت الى حيز الوجود بعد الحرب، وجدت ان هناك حاجة ملحة ومستعجلة للتخلص من الاجانب.

ان الثورة الاقتصادية ودخول المواطنين المصريين كعنصر رئيسى فيها. كان له التأثير العميق فى الولادة الجديدة لاقتصاد البلد.

لقد تعودوا ان تكون التجارة فى ايدى الاجانب، وتوريد وتصدير البضائع يجب ان يتم فقط على ايدى وكلاء اجانب، أما الان فان المواطن المصرى يتعامل مباشرة مع الشركات الاوربية وهكذا فقد اجبر على تبنى طرق التمويل الاوروبية، فهو يوقع فواتير المبادلات التجارية، وهو شيئ لم يتعود عليه ابدا من قبل، وهو يبنى البنوك ويدخل الى عالم الحداثة.

اما الصناعة فقد كانت فى السابق صناعة بدائية فالصناعات الخشبية، والحديدية، والنحاسية، والقطنية كانت تعمل بادوات تعود للقرون الوسطى. اما الآن فقد قام المواطنون باستيراد الالات الاوربية، وبنوا المصانع واتبعوا الوسائل الهندسية المتقدمة.

والآن يمتلكون المدارس التجارية، ومدارس المعاملات التجارية. لقد تغيرت وسائل النقل، فالسيارات تسللت الى كل مكان وربطت المدن فى النهاية مع بعضها البعض بشبكة المواصلات ، ونفذت الافكار والاساليب التجارية بشكل تام.

ولاسباب اقتصادية إختفى نظام تعدد الزوجات وزادت نسبة الزيجات بين الرجال المسلمين، والنساء الاوروبيات والان نجد العائلات التى تنتمى إلى طوائف مختلفة تعيش تحت سقف واحد، واغلب هذه العائلات مسلمة ومسيحية. وهذا شيئ لم يكن يسمع به من قبل ونتيجة لهذا التواصل الذى تسبب به اقتصاد مابعد الحرب. فقد تبدلت التقاليد الراسخة وتغيرت الافكار ، واتسعت المدارك

ان العديد من الشرقيين والغربيين ينادون من خلال اساليب التعبير الجميلة

بتفوق وسمو الروح الشرقية ويعلنون من خلال ذلك الشعور الرومانسى ان الضوء سوف يطلع ثانية من الشرق.

اذا، من اجل ان نقف على ارضية راسخة، ومن اجل تجنب عدم المصداقية التى تحيط بالنبوءات دائما، اعتقد انه يتوجب علينا ان نربط انفسنا بهذا التحول الذى لاريب فيه، فى الثورة المعاصرة فى العالم الشرقى، وان تقوى انفسنا بالدليل المباشر والثابت

صحيح انه لاتوجد حضارة شرقية الآن، وصحيح ان الانسان الشرقى بسيط وساذج وان الزمن قد تجاوزه وهو غير متكيف مع الحياة المعاصرة، ولكن من اجل ان يبدع هذا الشرق حضارته الخاصة، فانه يتحتم عليه ان يربط نفسه بفعل الضرورة بالغرب. عليه فى البداية ان يكمل مرافقه بالحضارة الغربية، وقد بدأ ببناء مرافقه، وتبنى وسائل التقنية الاوروبية فى الانتاج، الوسائل الجديدة فى الصناعة والتجارة ، والوسائل التحليلية النقدية فى التفكير، وهو مصمم على تبنى الطريقة الشرقية فى الحياة جنبا الى جنب مع العلم الغربى

والمستقبل هو ملك الشعوب التى توفق بين شيئين هامين:

١- التكنولوجيا الحديثة

٢- العقيدة الواحدة، ولا اقصد هنا الدين إنما الاجتماع على مبدأ مركزى ،ضارب فى ضمير الناس. الآن اوروبا هى الاولى، والشرق يحل فى المرتبة الثانية وقد بدأ الشرق خاصة فى فترة مابعد الحرب، يدخل الى عالم التكنولوجيا ويبدأ يصبح منظماً اما اوروبا فانها تسعى نحو نهايتها بثبات، وتفقد كل مبدأ مركزى يجمعها. ان الحرب العالمية القادمة لامحالة سوف تتبدد هنا.

اجل هنا بكل احتمالاتها وعنفها، وعندها سوف ينتقل مصير العالم من الغرب الى الشرق.

وحين اقول الشرق، فاننى اعنى روسيا ايضا.

كفافي

بلا ادنى شك، يعتبر الشاعر «كفافى» CAVAFY اهم الرموز الثقافية الفذة النادرة فى مصر، وانا اجلس قبالته الى احدى الطاولات الصغيرة. فى داره الفخمة الرحبة، كنت احاول استجلاء طلعته فى ذلك الضوء الخافت الشحيح، وكانت الطاولة بيننا مملوءه بكؤوس الويسكى و«الماستيما» وهى عرق مصرى مصنوع من التمر، وكنا نشرب، لقد تحدثنا عن اناس مختلفين وعن افكار شتى. كنا نضحك، ونغرق فى الصمت، وبعد قليل من الجهد نعود الى الحديث مرة آخري وكنت احاول ان اخفى عواطفى وانفعالاتى، وسعادتى خلق قناع الضحك. فهناك يجلس امامى الرجل الكامل الذى يمثل بهدوء انجازه الفنى بكل كبرياء، انه ذلك الشيخ الزاهد الذى قهر حب الاستطلاع، والطموح، والحسية، واخضعها الى نظام الزهد الابيقورى القاسى.

لابد انه قد ولد كاردينالا فى فلورنسا فى القرن الخامس عشر. وعمل كمستشار سرى للبابا كمبعوث شخصى فى قصر دوق «فينيسيا»، يقضى سنوات عمره يشرب، ويحب، ويقضى وقته يدور حول القنوات، يكتب، يحتفظ بصمته، ويناقش اعظم الشياطين، ويتورط فى القضايا الفضائحية للكنيسة الكاثوليكية.

لقد تبينت ملامحه فى العتمة، فى الديوان، تبدو تعابيره فى نفس الوقت، شيطانية ماكرة، وتهكمية قوية. اماعيناه السوداوان الجميلتان، فانهما تلمعان فجأة حين يسقط عليهما شعاع قليل من ضوء الشموع. ثم تتغيران مرة اخرى، فتبدوان صافيتين، ذابلتين، متعبتين.

اما صوته فقد كان ينبض بالتكلف والتصنع، والالوان، وقد كنت مسروراً ان روحه الحكيمة الماكرة، اللعوب، المداهنة، المنمقة، الفاتنة، قد انعكست فى

هذا الصوت.

وهذه الليلة، كما رأيته وسمعته للمرة الاولى أدركت لم كانت حكيمة هذه الروح المعقدة، المثقلة بالهموم، لهذا الرجل الذى كرس نفسه للتطهر من الشهوات. ونجح فى العثور على اسلوبه الفنى الخاص، هذا الاسلوب الذى لانظير له، وحافظ على هذا الاسلوب.

هذه المقطوعات الشعرية المرتجلة بشكل غير مقصود، والمدروسة بدقة بالغة، وهذه اللغة المتناقضة بترو مقصود، وهذه الغنائية غير المتكلفة، فى شعر «كفافى»، هى الشىء الوحيد الذى يعانق روحه، ويشف عنها.

الجسد والروح شىء واحد فى قصائده، ونادراً ماحدث مثل هذا الاتحاد العضوى الفعال فى تاريخ الادب. ان «كفافى» هو احد الزهور الاخيرة الباقية للحضارة، هذه الزهور التى تجمع الثنائية المتناقضة فى اوراق ذابلة على اغصان طويلة، وسيقان مريضة لابذور فيها.

لقد امتلك «كفافى» كل الخصائص المميزة النموذجية للرجل الفذ والفريد فى زمن الانحطاط، لقد جمع الحكمة، والسخرية، والحسية، والسحر، وفائض الذكريات.

انه يعيش كما لوانه الشخص المختلف، والشخص الوحيد الشجاع.

انه يتكىء على حاشيته الناعمة، ويحدق من خلال نافذته وينتظر ظهور البرابرة، انه يحمل ورقته التى تحتوى على المدائح المقدسة الوائعة الاخيرة. أنه يرتدى ملابس العطلة الجميلة المرسومة بعناية، وينتظر. لكن البرابرة لايأتون، ومع هبوط الليل، يتنهد بنعومة، ويطلق ابتسامته التهكمية تجاه طموحات روحه البريئة الساذجة.

هذه البلة نظرت اليه، وتمتعت بروحه الشجاعة التى خمدت وهمدت وفقدت قوتها وشجاعتها والتى اضطرت ان تقول، بعد فوات الاوان، وداعاً للاسكندرية التى يفتقدها.

قلت مقسماً:

-«الاتريد ان تشرب ابداً من هذا الخمر انه من «تشويس»»، لماذا اصحبت هادئاً جداً؟»

انحنى وملأ كأسى. فرأيت للحظة ان هناك ايماءة سخرية ونبل فى عينيه. لكننى بقيت صامتاً لاننى كنت افكر بقصيدته الرائعة «الرب ينبذ انتونى» لوم انسبس بكلمة، لاننى كنت اعيد تلك القصيدة ببطء بينى وبين نفسى:

عندما تسمع، فجأة عند منتصف الليل

مجموعة لامرئية وهى تعبر

تعزف موسيقاها الرقيقة، وصرخاتها المنطلقة

لاتتفجع على حظك الذى يوقع بك الآن

واعمالك التى فشلت، وخطط حياتك التى استحالت الى اوهام.

كأنك كنت تعد لذلك منذ مدة طويلة

وكأن الشجاعة تقول وداعاً للاسكندرية التى تغادرها. وفوق ذلك يجب الا تستخفل، لاتقل لنفسك انها كانت مجرد حلم، وان اذنيك قد خدعتاك لاتتوقف عند هذه الآمال التى لاجدوى منها كأنك كنت تعد لذلك منذ مدة طويلة، وكأن الشجاعة التى اصبحت جزءاً منك انت. انت الذى يستحق مثل هذه المدينة.

تقدم من النافذة بخطوة ثابتة.

واستمع بعواطفك، لكن بلا توسلات وتذمرات الجبان.

استمع الى الاصوات وكأنها المتعة الاخيرة

استمع الى الالات الموسيقية المرهفة لهذه الفرقة الغامضة

وقل لها وداعاً، وداعاً، للاسكندرية التى تفتقدها».

تلك الامسية، كانت وليمة الوداع. فلن أنسى تلك الامسية، لاننى اعتقد انها تمثل الفترة الحاسمة الحرجة التى نعيشها. انها الخطر المعلق فى الهواء،

فالقلق يخترق حتى معظم ساعات المودة التى نتعلق بها، ويعطى نكهة الحرب والصراع لعلاقات الصداقة.

كنا حوالى خمسة عشر شخصا، كنا نأكل معاً، ونضحك للحظة، ثم بعد ذلك استدار نحوى ذلك الرجل الاصغر منى سناً، وقال لى بكآبة وقلق:

-«يجب ان نتحدث هذه الليلة قبل ان تغادر فان الكثير مما كتبته فى «اناغينسيسز» «Anagenesis» لانتقبله»

وقد وقف ينتظرنى، واخذ يرتعد من الحب، والكرة، وهو ينظر الى.

وانا الذى سررت جداً بالجيل الشاب، هذا الجيل الذى تستمع اليه اذنى بانصات شديد، بتنبه شديد، بتلهف، واشتياق، وحين اكون فى حضرته، اكون فى غاية السعادة. أجبته ضاحكاً:

-«سوف نتصارع، انت تطرح وجهة نظرك وانا اطرح وجهة نظرى، وندع الموجودين يفصلون بيننا» جلسنا كلنا حول طاولة كبيرة، وعيننا الدكتور «بول بيتريدز» رئيساً علينا، وبدأنا الصراع.

كنت ادرك اننا لن نتحدث عن الفن، وقبل سنوات قليلة كانت دائرة النخبة المثقفة فى الاسكندرية تجلس حتى الفجر تناقش «بالاحاس»، و «كفافى» وقضايا الفن وعلم الجمال، وتتلو الاشعار. والآن، وبالرغم من وجودى معهم لعدة ايام، فاننا نادراً ماتحدثنا، او حتى مررنا مرور الكرام على الدارسين والاعمال الادبية. لقد تبدلت الروح، لقد غير الخط الامامى فى المعركة اتجاهه، لقد تغير كل هذا الذى يبدو قديماً بالنسبة لنا، الزخارف اللفظية الفارغة، الانشغال بالافكار الرجعية والناس المتخلفين.

هكذا فالليلة، سوف تدور رياح الجدل حولنا. والجيل الشاب الشاحب، يتحدث باقتضاب وبفعالية، تماماً كما يتوجب على الجيل الشاب ان يتحدث، بلاتردد او احجام، كانوا متصلبين فى آرائهم، لايتزمرون عنها، لم يخادعوا ولم يتركوا مجالاً لتعدد وجهات النظر. هذا هو ما يؤمنون به.

لقد تحدثنا بعواطفنا، كما لو اننا ندلى باعترافاتنا، حول مطالب الانسان

المعاصر واحتياجاته، وحول واجبنا، لقد تحدثنا عن الفصائل المختلفة المنظمة، والتى تطوع كل واحدمنا للدفاع عنها، وعن الوسيلة التى يمكن ان يقاتل كل منا من خلالها.

ولم يمض وقت طويل على تلك الامسية الحميمة، حتى تحول الاجتماع الى مجلس للحرب، كما لو اننا كنا حقاً فى حالة حصار، وقد اجتمعنا معاً لنقرر طريقنا الى الفعل.

وقد انقسمنا الى معسكرين رئيسيين، بعضنا ايد فكرة ان الاقتصاد هو المحرك الاول للتاريخ. فالدوافع الاقتصادية هى وحدها التى تلقى الضوء على قيمة الحياة وهى التى تقود تفكيرنا باتجاه الفعل. اما الدوافع الاخرى فهى دوافع ثانوية وفرعية.

اما الآخرون فلم يوافقوا على ذلك، وفد قال أحدهم فى محاولة منه للتعبير عن افكاره:

-«انا اشك فى ان تكون القضايا الاقتصادية قادرة وحدها على توضيح كل شيء. وانا لا اقبل بهيمنة هذا النظام الاقتصادى العالمى الا اذا كنت مجبراً «على ذلك» واضاف،

-«اذا كنت مجبراِ، بمعنى آخر، اذا كنت مجبراً خلال النظرية لممارسة الفعل، فان اى انسان يعاين ويدقق فى تطور الفعل الانسانى، سيجد نفسه فى بعض الاحيان مجبراً ايضاً على تقبل العنصر الروحى كمحرك مسيطر للتاريخ. من ناحية اخرى، فان من يتخلى عن النظرية، ويخوض غمار الفعل يكون مجبراً على تقبل نظرية العنصر الاقتصادى فقط، وذلك من اجل ان يوجد ارضية ثابتة، يسير عليها ويبنى. والا فانه سوف، يضيع نفسه فى مناخات التأمل الصوفى الخطره الغامضة. حين جاء دورى لاعطاء وجهة نظرى، كان على ايضاً ان اعترف باننى قد اقتنعت الى حد ما، فهذه مأدبة للاصدقاء واصدقائى يدعوننى الى مأدبة الرحيل، لكن اللحظة التى تحيط بنا هى لحظة حاسمة وخطرة جداً، مما لايسمح لنا بالتعامل بالعواطف. وكان

اصدقائى ينظرون الى بتجهم وينتظرون.

وقد حاولت من خلال كلمات قليلة ان اعبر عن عقيدتى:

-«انا من انصار مبدأ الاحدية- القول بان ثمة مبدأ غائياً واحداً، كالعقل او المادة- وانا اشعر بعمق ان المادة والروح هما شيء واحد، وفى داخلى اشعر فقط بالجوهر الواحد. لكن حين ادفع الى التعبير عن نفسى كما هو الحال هذه الليلة، وان اصوغ هذا الجوهر، فاننى ادفع بشكل طبيعى الى التعبير عن نفسى بالكلمات، اى بالمنطق، وهكذا، باتباع طبيعة المنطق، فاننى اجد نفسى مجبراً ان افضل مايتعذر فصله بالطبيعة.

وبما ان المدارك الانسانية محدودة، لذلك فاننى خارج كل الاتجاهات والمصادر المطلقة للواقعية، احاول فقط ان اميز بين شيئين، الشئ الاول الذى نطلق عليه اسم «المادة»، والثانى الذى نطلق عليه اسم «الروح» هناك كلمة واحدة فقط، المادة، او الروح. وكما افهمها فانها تعبر عن جزء من الادراك الاول، لان كل كلمة من هاتين الكلمتين قد انتقص منها عن طريق الاستعمال والعرف، حيث اصبحت تدل على. مضمون ضيق ومحدد.

ولهذا فاننى حين اريد ان اصوغ بكلمات كل واحد منهما، فاننى ايضاً افصل الى شيئين حتى الدوافع العظيمة المحركة للتاريخ، سواء اكان ذلك بالنسبة للافراد او الجماعات، وهذان الشيئان هما: الجوع والعواطف.

اننى استعمل كلمة «العواطف» ولم استعمل «الروح» لان هذه الكلمة قد البست مضموناً ايديولوجياً روحياً مركزاً، وهو مضمون مبهم كريه بالنسبة لى. و «الروح» تشتمل على قدر كبير من «المادة» اكثر مما يتصوره الماديون، تماماً كما تحمل «المادة» قدراً كبيراً من «الروحانية» اكثر مما يتصوره المثاليون.

ولهذا فاننى استطيع ان أعلن عن افكارى بفظاظة كالتالى: الجوع، وهو علة اقتصادية، هو بالطبع الدافع الاول. هذا هو الحال فى أغلب الاوقات. لكن فى الاوقات الحاسمة والخطرة فان الغضب، الكره، الحب، والغرائز المتولدة عنها.. الخ، يكون الدافع الاول فيها هو العواطف.

على اي حال، وبناء على ماقلت سابقاً، فاننا حين ننظر بعمق الى اعماق اختلافاتنا، فاننا نراها تختفي»

هكذا تحدثنا، وكان الفجر على وشك البزوغ.

سيناء

منذ سنوات وسيناء، ذلك الجبل الذى وطأه الله، تلمع فى ذاكرتى مثل قمة لاسبيل الى الوصول اليها. البحر الاحمر، الجزيرة العربية، البتراء، ميناء ريشو الصغير، قافلة الجمال الطويلة التى تعبر الصحراء، الجبال الغادرة الوحشية التى أنّ فوقها اليهود بعد ان تاهوا فى الصحراء اربعين سنة واخيراً، ذلك الدير الذى بنى فوق ذلك المرج المحترق الذى لم يفن ولم يهلك. هنا، يتجسد الهدف الذى كنت أحن الى انجازه طوال هذه السنوات التى كنت اسير خلالها بغير هدى فى المدن الكبيرة.

كان «الجليل»، بأناشيد رعاته الرقيقة، بجباله الهادئة المتناغمة، ببحيرته الزرقاء الصغيرة الفاتنة ينتشر خلف اكتاف المسيح، مبتسماً،كأنه صورة اخرى منه، بنفس الطريقة التى تتماثل فيها الأم مع ولدها فالجليل، حاشية بسيطة متألفة- خارج سياق العهد الجديد. حيث يبدو الهها مسالماً، متعففاً، مرحاً، مثل اى انسان رائع.

لكن العهد القديم هو الذى كان مصدر اثارة دائمة لى، فقد اقام علاقة طويلة وعميقة مع روحى. فقد كنت وانا اقرأ هذا النص الفج، احس بصاعقة الانتقام والثأر التى يشتمل عليها هذا الكتاب، والتى تحرق الانسان حين يمد يده إليه مثل الجبل الذى نزل عليه الرب، وكنت أنبض بالشوق كى اذهب واري بعينى، والمس تلك الجبال الكريهة التى ولد فوقها.

ولن أنسى ابداً ذلك الحوار القصير الزخم، الذى اجريته ذات مرة مع امرأة فى حديقة.

قلت:

-«اشعر بالقرف من الشعر والفن والكتب، فهذه الاشياء كلها تبدو تافهة بالنسبة لى، انها مصنوعة من الورق، مثلها كمثل ان تكون جائعاً، لكن بدل ان تعطى اللحم، والخبز والخمر، تقدم لك قائمة الطعام، فتبدأ بالتهامها مثل الماعز»

كنت اتحدث بغضب، وكانت المرأة التى تجلس قبالتى شاحبة بخدين

عريضين وفم واسع مثل فلاحة روسية. فأضفت:

-«هكذا تبدو ارواض الملولة قانعة بجوعها هذه الايام.. مثل الماعز»

ضحكت واجابت:

-«انك تتحدث معى بغضب، مع اننى متفقة معك. لايوجد سوى كتاب واحد فقط- العهد القديم-. لانه الوحيد الذى لم يكتب على الورق، انه يقطر دماً، انه مصنوع من اللحم والعظم، الكتاب المقدس بالنسبة لى، مثل الشاى المطعم بالبانونج بالنسبة للناس السذج والمهمومين. لقد كان المسيح يجق- مثل حمل، ذبح على العشب الاخضر يوم الفصح، دون مقاومة، ودون ان يطلق ذلك الثغاء المحبب.لكن «يهوه» هو الهى، انه صلب، مثل البربرى الذى ينبثق من البرية الرهيبة وهو يحمل البلطة فى حزامه، وبهذه البلطة استطاع «يهوه» ان يفتح ويدخل»

وخلال لحظات قليلة، اخذت المرأة الشاحبة تتحدث بشكل اكثر رقة:

-«هل تتذكر كيف تحدث مع الناس؟ هل رأيت كيف خشع الناس، وخشعت الجبال والارض بين يديه؟ هل رأيت كيف ركعت الممالك على قدمية؟ لقد حاول الانسان ان يصرخ، يبكى، ويقاوم، كى يتخلص منه، لكن «يهوه» كان مثل سكينة غرست بين كتفيه»

هكذا تحدثت السيدة الشاحبة فى تلك الحديقة المغمورة باشعة الشمس، ومنذ تلك اللحظة اخذت الرغبة تتفجر داخلى للذهاب الى ذلك العرين الذى ولد فيه ذلك الاله المتعطش للدم. وان ادخل اليه، كما يدخل الانسان الى عرين الاسد.

وهذا الصباح، حين كنت اشاهد مدينة «البتراء» العربية والجبال التى تنتصب خلفها، التى يتصاعد بخارها تحت اشعة الشمس، اصابتنى رعدة فرح وخوف، فقد كنت لحظتها ادخل الى عرين الاسد.

أما ميناء «ريثو» «Raitho» فهو ميناء صغير ساحر فى جزيرة سيناء، تتبعثر بيوته القليلة على اطراف الساحل، وعلى سطح ذلك البحر الاخضر،

تطفو الزوارق الصغيرة الحمراء والصفراء والسوداء. هدوء ممتع، كانت الجبال تكتسي باللون الازرق الفاتح، والبحر يفوح برائحته العطرية التي تشبه رائحة البطيخ الاحمر، وقد استدار نحوي رفيق رحلتي الفنان «كالموهوس» «Kalmouhos» وهو يضحك، وقال:

-«لقد ارتكبنا خطأ،ألا ترى؟ لقد جئنا الى جزيرة اغريقية، لقد جئنا الى (سيفنو) (SIPHNO)

لكن على البعد تستطيع ان تشاهد اشجار النخيل، وترى جملين يظهران امامك على الطريق بين تلك الاشجار، وكان الجملان يديران رأسيهما نحو البحر للحظة، ويهزان جسديهما وخلال خطوتين او ثلاث خطوات متمايلة، يختفيان بين البيوت..

مشينا، وقلبانا يتراقصان ونحن نطأ الرمل الناعم، هل يمكن ان تكون هذه الروعة البسيطة الهادئة مجرد حيلة من حيل افكارنا؟ كان الرمل ممتلئاً بالاصداف البحرية الضخمة، الاصداف البحرية التي اشتهر بها البحر الاحمر. اما البيوت، فكانت قد بنيت من جذوع الاشجار التي تستخرج من البحر. ومن المرجان الكلسي والاسفنج، ومن نجوم البحر، والاصداف الفخمة. اما الناس فقد كانوا متألقين، بعيونهم اللوزية، وبشرتهم الداكنة، وجلابيبهم البيضاء المتهدلة. وكانت هناك فتاة صغيرة بلون الشيكولاتة، تلعب على ذلك الشاطيء الرملي الابيض، وهي ترتدي ثوباً مزيناً باغصان نبات «البوغنفيليه» الامريكي.

وكان هناك العديد من البيوت الاوروبية المصنوعة، ذات الشرفات والحدائق المتناظرة المتشابهة. اضافة الى بعض علب الفواكه المتناثرة في الشوارع. وكانت هناك امرأتان تمارسان هواية القراءة تحت مظلتين خضراوين كبيرتين، وكانت بشرتهما البيضاء القاتلة، تجعلك تتلهف شوقاً اليهما.

وشاطئاً بعد آخر، وصلنا في النهاية الى ملحقية سيناء، ومن هنا يتوجب عليك ان تركب الجمال للانطلاق نحو جبل «الطور» الجبل الذي وطأه الله.

هناك ساحة كبيرة، محاطة بصوامع الرهبان، وبيوت الضيافة، ومدرستان اغريقيتان للبنات والاولاد، ومخازن، ومعصرة للزيت، ومطابخ، وفي منتصف الساحة تنتصب الكنيسة. ويتوّج كل هذا المشهد، اعظم معجزات هذه البرية، كنيسة «الارشمندريت «ثيودوسيوس» رئيس دير رهبان «ماتوهيون»، ذلك المكان الدافىء، والمحبب لقلب كل انسان.

نادراً ما يأتي اليونانيون الى هذه البرية، اما الارشمندريت ثيودوسيوس، ذلك الراهب اليوناني الطويل، العظيم، المتقد حماساً، والذي جاء من «تسيسمس» «Tsesmes» باسيا الصغرى. فقد استقبلنا، وكانه يستقبل اليونان ذاتها. لقد استقبلنا بكل طقوس الضيافة الكهنوتية الرائعة التي احبها: ملعقة من الفواكة المعلبة، ماء بارد، قهوة وطاولة مكسوة بغطاء ابيض تفوح منه رائحة العطر وكانت الفرحة تضيء وجوه الرجال الذين يقومون على خدمتنا.

كان البحر الاحمر يتألق ويلتمع من خلال النافذة، وفي الجهة المقابلة، كانت جبال طيبة الغارقة في الضوء تتراءى لنا من خلال الضباب، وقد تحدثت مع «الأباتي» رئيس الكهان حول العلامات الثلاث والنخلات العشر، التي ذكر الكتاب المقدس انها وجدت في قرية «ريثو»، حين عثر عليها العبريون بعد ان عبروا البحر الاحمر. وبعد ذلك سألت عن عيون الماء الاثنتي عشر، وقد كانت اسئلتي هذه شبيهة باسئلتي حول أقاربي عند عودتي الى بلدي بعد غياب طويل. كل هذه الاسئلة الانجيلية- نسبة الى الكتاب المقدس- كانت متناغمة بشكل رائع مع هذه البرية المترامية التي تحيط بنا، والجبال المقابلة لها، حيث يعيش ويجاهد هؤلاء الزهاد العظماء. وحين عرفت بان بستان اشجار النخيل مازال حياً، وان منابع الماء مازالت جارية، شعرت بمتعة كبيرة.

غالباً ما كنت اتذوق مثل هذه المتعة في حياتي- كأس ماء مع نهاية كل رحلة، كوخ متواضع، قلب انساني حي يعيش في مكان مجهول من هذا العالم، دفء، وحرارة عظيمة بانتظار الغريب. وحين يظهر الغريب عند نهاية

الطريق يقفز القلب بسعادة وسرور، لانه عثر على كائن بشرى. وكما هو حال الحب كذلك يكون حال الضيافة، فان من يعطى يكون هو الاكثر سعادة من المتلقى.

اما الرجال الثلاثة الذين يقودون الجمال. فهم «طعمة»، و «منصور»، و «عودة»، وكانت مهمة هؤلاء الرجال اخذنا الى قمة جبل سيناء، وقد وصلوا بجلابيبهم الملونة، وكانوا يرتدون قبعات منسوجة من وبر الجمال على رؤوسهم، وكان كل واحد منهم متقلداً يطقاناً معلقا بحزام الكتف. كانوا بدواً ممشوقى القوام، نحيلى الارجل، بعيون مستديرة كعيون الصقر وقد قاموا بتحيتنا بوضع ايديهم على قلوبهم، وشفاههم، وجباههم.

كان كل واحد منهم يقود جمله، وكان كل جمل يحمل على سنامه الطعام، والخيمة، والمعاطف العسكرية، والبطانيات، اى عدة الرحلة، فقد كان يتحتم علينا ان نبقى فى الصحراء ثلاثة ايام بلياليها.

لقد تعلمنا بضع كلمات. وهى اهم الكلمات التى لاغنى عنها خلال اقامتنا مع هؤلاء البدو، التى دامت ثلاثة ايام، وهذه الكلمات هى: النار، الماء، الخبز، الله، والملح،

وقد انيخت الجمال بهوادجها ذات الاشرطة الارجوانية والسوداء، وهى تئن بسخط، وكانت عيونها الجميلة تلتمع بانفة لارقة فيها.

قال الاباتى آمراً:

-«اعطوا الجمال بعض ثمار التمر، كى تحلى اسنانها»

وقام «بوليكاربوس» الشماس القبرصى الجميل، باحضار التمر فى احدى القفف، وقام بتوزيعه على البدو والجمال.

وانطلقنا فى رحلتنا، حيث غرقنا كلياً فى هذه الصحراء التى لانهاية لها. وفجأة، وبعد خطوة واحدة من الدير، أصبحت الصحراء تبدو رمادية، مترامية، وقاحلة.

كان ايقاع خطى الجمال المتماوج والصبور، يمتد الى اجسادنا، وكان الدم

ينظم ايقاع حركته مع هذا الاحساس، وحين يفيض الدم ويتدفق، تسرى الروح فى جسد الانسان، وكان على الوقت ان يحرر ذاته من المهاجع الرياضية - نسبة الى الرياضيات- التى حشر نفسه فيها، بناء على الذهنية العقلانية الغربية. هنا مع تأرجح «سفينة الصحراء»، يجد الوقت ايقاعة الازلى. حيث يصبح احساساً متدفقاً غير مرئى، انه دوار صوفى خفيف، يحوّل الفكر الى حلم يقظة وموسيقى.

وبعد احاطة نفسى بهذا الايقاع لعدة ساعات، ادركت لماذا يقرأ الاناضوليون القرآن وهم يتمايلون الى الامام والى الخلف. كما لو انهم يركبون جملاً، فبهذه الطريقة كانوا يتواصلون مع ارواحهم، فهذه الحركة ذات الوتيرة الواحدة، التى لاتنتهى، سوف نقودهم الى ذلك الفرح الصوفى الصحراوى.

كنا قد سرنا لمدة خمس ساعات هلى هذا الرمل الجميل، وعند هذه اللحظة، كانت الشمس قد غربت، وكنا قد وصلنا اخيراً الى سفح الجبل، فتوقف «طعمة»، قائد رحلتنا هذه، واعطى الاشارة الى المعسكر.

«كررر»، «كررر»،جاءت هذه الاصوات من اعماق حناجر الادلاء، فركعت هذه الجمال الى الامام، ثم بشكل مفاجىء سقطت على مؤخرتها، كما تفعل البيوت لحظة انهيارها.

قمنا بانزال الاثقال، ونصب خيمتنا، وركض «عودة» واخذ يجمع بعض الاغصان، واشعلنا النار، بينما قام. «منصور» باحضار وعاء، ووضع فيه الارز والزبدة من سلة القش وبدأ يطهو.

كان البرد قارساً، فتحلقنا حول النار، واعد «كالموهوس» نفسه لرسم حيوانات متنوعة على رقعة من الورق، وسأل:

-«فيه كابلان» «هل هناك اسود ؟»

وحدق البدو بدهشة وجدل الى الاسكتش الذى رسمه للاسد، وصرخوا.

-«فيه.. فيه»

«فيه تعابين» «هل هناك افاعى؟»

-« فيه.. فيه »

كان « طعمة » فى تلك الاثناء يحرك طحين الذرة ويخلطه بالماء، ثم يشكله باصابعه السوداء الرشيقة، فى الوعاء، ومن ثم اخذ يخبزه كما يخبز الخبز غير المختمر.

وسرعان ما اعد الشريد، وعبقت رائحته، فتحلقنا حول الطعام، وبدأنا الاكل ثم سكبنا الشاى، ودخننا، وتحدثنا، وحين خمدت النار، ولم يعد باستطاعتنا رؤية شيء، خلدنا الى الصمت.

كانت هناك غبطة سرية تمتلك روحى، وقد قاتلت من اجل قمع كل هذه الرومانسية- الصحراء، الغربان، الخيمة ، البدو- ثم **ضحكت** بسخرية على قلبى لانه كان يخفق ويرتعش على هذا النحو.

وحين تمددت فى الخيمة، واغمضت عينى، وجدت ان كل تلك الاسرار العميقة الغامضة لتأوهات الصحراء تنسكب فى ذاكرتى، كانت الجمال المستلقيه خارج الخيمة تمضغ مااجترته وكنت قادراً على سماع فكيها تمضغان ببطء وسعادة، كانت الصحراء كلها تمضغ مااجترته مثل الجمال.

ومع فجر اليوم التالى بدأنا رحلتنا عبر الجبال ، الجبال المقفرة، التى لاماء فيها ولاحميمية، الجبال التى تحتقر الانسان وتغتصبه، وفجأة سمعنا صوت طير حجل برى وهو يضرب بجناحه مطلقا صوتا نحاسيا على نتوءات الكهوف الصخرية، وبين فينة واخرى، كان احد الغربان يحلق فوق رؤوسنا بحركة دائرية وكأنه يريد ان يتشممنا قبل ان يفكر بما يتوجب عليه فعله.

طوال النهار لم يكن هناك سوى ايقاع الجمال والحداء الذى يطلقه « طعمه » ، ولم يكن هناك سوى الشمس التى تكوينا مثل النار، والهواء الملتهب فوق الصخور وفوق رؤوسنا.

كنا نقتفى اثر تلك الطريق اللانسانية التى سار عليها العبريون قبل ثلاثة الأف سنة حين هربوا من مصر. هذه البرية التى نعبرها الآن، كانت مثل ورشة عمل مريعة، عطش فيها الجنس الاسرائيلى ، وجاع، وازداد صلابة ، ثم لجأ

الى التزوير. وقد حدقت بعينين نهمتين لاتشبعان فى هذه الصخور، صخرة بعد أخرى، متتبعا طريق الزوابع فى الشعاب، وطابعا آثار كل هذه الجبال الملتهبة المترامية فى ذاكرتى. وقد تذكرت تلك المرة التى سرت فيها على الشاطئ الاغريقى، كنت قد سرت لساعات عديدة، خلال كهف طبيعى، ملجأ بالرشوحات الكلسية المتدلية والصخور العملاقة، والتى كانت تتلألأ عاكسه شعاعا قرمزيا على ضوء الشموع. وقد كان هذا الكهف مجرى مسقوفا لاحد الانهار الكبيرة وقد جف هذا الكهف الآن، لان مجرى النهر قد تغير عبر العصور.

لقد لمع فى ذاكرتى فجأة خاطر يقول ان هذا الشعب تحت هذه الشمس الحارقة، الذى نعبره الآن، يشبه بالضبط ذلك النفق. لقد حفر «يهوه» سلسلة الجبال هذه كى يعبر من خلالها، وقبل ان يعبر هذه البرية لم يكن «يهوه» قد حدد بدقة كامل تصوراته. وذلك لان شعبه لم يكن قد تحدد بشكل ثابت بعد، لقد كان الاله مبعثراً فى السماء ولم يكن ذا روح واحدة، بل عدة ارواح، وكان مجهولا وغير مرئى وقد نفخ الله روح الحياة فى هذا العالم، وقد تزاوج واتحد مع المرأة وقتل، وهبط على الارض مثل البرق والرعد. ولم يكن لشعبه بلد، ولم يكن لهم ارض ينتمون اليها ولاعشيرة.

لكن شيئا فشيئا اخذوا يبادرون للتحدى، فاخذوا يجوبون هذه المناطق المرتفعة، وقام هذا الشعب برش هذه الصخور بالزيت، وسكب الدم عليها، وقدم لها الضحايا والقرابين. ان افضل مايحبه الانسان يجب ان يقدم قربا للرب، من اجل الفوز بافضل نعمه، لذلك قدموا له اول ابنائهم، لان الابن الاول هو افضل واحب شيئ على قلب الانسان.

وشيئا فشيئا، وعبر العصور، ومن خلال الحياة السهلة، اصبح هذا الجنس البشرى اكثر رقة، واكثر تحضرا، لذلك فقد أصبح الههم رقيقا، ومتحضرا لذلك لم يعودوا يقدمون له القرابين البشرية، بل استبدلوها بالقرابين الحيوانية، ولم يعد ذلك الاله الذى لايدنو منه احد اويراه احد، بل تواضع وقبل بالاشكال

والصيغ التى يمكن ان تصل اليها عين الانسان، مثل العجل الذهبى، السفينكسى المجنح، الافعى، والصقر

وهكذا فقد بدأ اله العبريين يخفت ويتلاشى، الى ان ضاع فى هذا الهدوء والصفاء العظيم لارض مصر. لكن فجأة تدخل غضب الفرعون وخلع العبريين من جذورهم من هذه الحقول الغنية. والقوابهم الى هذه الصحراء العربية القاحلة القاتلة، وهنا بدأ الجوع والعطش، النقمة والعصيان. اعتقد انهم قد وقفوا هنا ذات ظهيرة، جائعين وظامئين، وأطلقوا صرختهم.

-« هل قدر لنا الله ان نموت على يد ملك ارض مصر، حين جلسنا حول مناعم الحياة وملذاتها، وحين اكلنا الخبز حتى التخمة! »

ورفع « موسى » يديه ببأس وبشكل بربرى للرب وصرخ:

- « ماذا يمكن ان افعل مع هذا الشعب العاق؟ انهم على استعداد لالتقاط الحجارة وقتلى! »

وانحنى الرب فوق شعبه واخذ يستمع، احيانا كان يرسل لهم المن والسلوى ليأكلوا واحيانا اخرى يسلط عليهم سيفه ليبيدهم، وفى كل يوم كان يمر عليهم فى هذه البرية كان وجه الرب يصبح اكثر عنفاً، وفى كل يوم كان يقترب من شعبه اكثر فأكثر، حتى اصبح ناراً فى الليل تتقدم مسيرتهم، وعموداً من الدخان فى النهار، الى ان استقر اخيرا فى تابوت العهد، كى يدعه سدنه الهيكل على الارض، ولاتجرؤ اية روح على الاقتراب منه.

واخذ وجه هذا الرب ينحف باستمرار، واصبح أكثر قسوة واخذ يأخذ مظهر وشكل « اسرائيل » واصبح محددا بشكل ثابت. واخذ يفقد جماهيريته وشعبيته، واصبح مجهولا، ولا وطن له، وتحول الى ارواح غير مرئية تتناثر فى الهواء، ولم يعد رب الارض كلها، لقد اصبح « يهوه » الاله القاسى، المنتقم، المتعطش للدم، لقد اصبح رب جنس واحد، الجنس العبرى، لانه مر بازمنة صعبة، يحارب المصريين، والعماليق، والميديانيين، وهذه البرية. وخلال هذه المعاناة. القتل المنظم، كان عليه ان يهزم اعداءه كى يحمى نفسه.

هذا الشّعب، الذي لااشجار فيه ولاماء، هذا الشعب اللاانساني، الذي نعبره الآن، هو مجرى «يهوه» المريع، من هنا، من هذا الممر، مر «يهوده» وهو يزأر.

كيف يمكنك ان تعرف وتحس بالجنس العبري دون ان تعبر هذا الممر، ودون ان تعيش في هذه الصحراء المرعبة؟ لقد عبرناها خلال مسيرة استمرت ثلاثة ايام بلا انقطاع على ظهور الجمال. لقد جفت حناجرنا من العطش، واصيب صدوغنا بالدوار، واصبحت عقولنا في دوامة وهي تتبع هذا الشعب الملتف كالافعى، والمتلألىء، والعاصف، كيف يمكن لشعب شُكّل في هذا الجو الملتهب على مدى اربعين عاما ان يموت ؟ انا، الذي يحب هذا الجنس القاسي الذي لايرحم كنت مبتهجا وانا انظر الى هذه الصخور القاسية الوعرة، التي شحذت عليها الفضيلة. والارادة، والعزم والعناد، والصبر، والجلد، فوق ذلك كله، الرب، الذي لحمه من لحمهم، والذي يصرخون فيه:

– «اعطنا الطعام لنأكل! اقتل اعداءنا! اعطنا الارض الموعودة!»

ويجبرونه ان يطيع هذه الاوامر بالقوة.

ان اليهود الذين استمروا على قيد الحياة، وحكموا العالم من خلال فضائلهم، ونوابهم، مدينون لهذه البرية. واليوم، في هذه الحقبة الزمنية المرحلية الهائجة، حقبه الانتقام والعنف، فان اليهود بحاجة ماسة مرة اخرى لان يكونوا الشعب المختار لهذا الاله المفزع المرعب، اله الخروج من ارض العبودية.

آه: لم تنفست بعمق هذا الهواء البطولي الازلي.

كيف يمكننا هذه الايام ان نوحدّ وجه الهنا المرعب؟ وكيف يمكننا العثور على هذه الكلمة البسيطة التي يمكن ان تحيط بكل جلال الرب، وبكل تناقضاته، تحيط بكرهه وحبه، بفرحه وحزنه، بقوته العظيمة، وبضعفه الشديد؟ هذا الرب المتعالي المتكبر، يمر فوق فضائلنا الانسانية، وبنات خوفنا، انه اله الدمار، واله الخلق والابداع في آن واحد، انه اله الموت واله الحب ايضا، انه الاله الذي يتناسل، ويلاقي، ويقتل، ثم يعود مرة آخرى للتناسل من

جديد، انه يرقص دائما خلف حدود المنطق، والفضيلة ، والامل.

الرب هو هذه الظلمة المجهولة، وهذه القوة المتفجرة المحتملة، التي يمكن ان تنفجر حتى في ادق القضايا واصفرها.

لقد عبرت هذه الصحراء العربية التي ابدعت الرب، وكانت كل آلام الانسان المعاصر تضرب بعنف في صدغي. كيف نجونا نحن ايضا، وكيف خلقنا المخلص المعاصر، الذي لحمه من لحمنا، ذلك البطل الذي سوف يقودنا الى الارض الموعودة المعاصرة؟

ان كل مخلص يعظ بالكلمة التي تناسب ابناء جنسه، والعصر الذي ولد فيه، وبنيته وصفاته الفردية الخاصة، لكن كل المخلصين هم شيئ واحد، انهم بالكلمة والفعل يعبرون عن نفس الصرخة الخاصة بما هو ادنى مرتبة من الانسان، والانسان وما هو اسمى مرتبة منه. فالرب يتعذب داخل الاجساد البشرية، وهو يشقى من اجل اطلاق كلمته ، ليزيل الاعباء عن ذاته، لكنه لايستطيع، انه يهذى ويتأوه، لكن فجاة ، ومن خلال الاوامر العليا التي يصدرها جسده. المظلم ذي الرؤوس المتعددة، يلد البطل، ماذا يعيني هذا؟« يلد البطل؟» هذا يعنى انه يصبح بطلا، وما ان تقرع هذه الصرخة المبهمة بشكل واضح، حتى تتنور الذاكرة، لان الرب بحاجة الى الرؤية والى دفعات قوية لاتكبو الى الامام، على هذه الارض، لبضعة قرون.

ويتحدث البطل، وتشعر كل المخلوقات بالبهجة لانها تدرك من خلاله صوتها الخاص، وهو يفعل، وكل الكون ينحاز الى جانبه ويريد ان يتبعه وكأنه يحس ان هذا هو مايريده، هذا هو الفعل الذي كان يريد ان يقوم به منذ البداية ، أي ان البطل، بمعنى آخر. هو التعبير الفعلي عن الرب، تجاه عصر معين وجنس معين، انه يعطى التماسك والذاكرة، لخوض الصراع، ويقدم هذا العالم باكملة كهبة للانسان. نحن نرى بعينيه، ونحن نسمع فقط مايسمعه هو اولاً ، ونحن نقتات على فتات مائدته الغنية، مثل الكلاب والمشردين، ونحن لانستطيع ان نمر من طريق لم يقم بفتحه امامنا، ولا ان نتلفظ بكلمة لم

يبتدعها. لقد كانت الصخور جافه وقاحلة امامنا الى ان اتى وضربها، فتدفق الماء الذى انعشنا جميعا. لقد استحالت الحياة الى سبخة راكدة، الى ان جاء، جاء بروح الثورة، واضطراب الماء، وعلاج المشلولين.

اشياء لاتعد ولاتحصى تجلس فى ظل اللاوجود وتنتظر البطل ليعطيها اسماءها، اى يعطيها حياتها وقيمتها. ان كل القلوب، حتى اكثر القلوب تفاهة. تطلق صرختها اللاارادية:

-«المسنى كى لااحترق، وحتى انجو معك».

تأخذ الهيولى شكلها، ويفقد الانسان خوفه ويصبح اكثر وداعة ولطفا، ويبدأ يشغل روحه وذاكرته مرة أخرى، وبكل ثقة، ويبدأ بتوسيع وزيادة النصيب والقدر الانسانى بقدر مايستطيع.

والبطل ليس ظاهرة سماوية غير متوقعة، فجذوره تكون ممتدة فى اعماق الشعب، ويساهم والدان عظيما الشأن فى ولادة البطل دون ان يعرفا بذلك، ودون معرفة من احد، فان كل جهد من الناس يهدف الى الوصول الى تلك النهاية البعيدة، خلق البطل، المسيح، كى تكتب النجاة للناس.

ويعتقد اليهود ان المسيح سوف يعود ثانية اذا قاموا باعمال جيدة، لكنه لن يأتى، وليس بامكانه المجئ حتى لواراد ذلك. وحتى لو وقع اليهود فى البلادة والجمود والكفر، ان كل فعل جيد ونبيل يجبره على الاقتراب والدنو، وكل فعل شرير وجبان يبقيه بعيداً. لذلك فان المسيح يعتمد على كل الافعال الانسانية، انه يخلق على يد الانسان، وعلى يد كل الناس، الناس الصغار والناس العظماء، وبشكل اكثر دقة وعمقا، نقول ان الخلاص لن يأتى على يد المسيح، ولكن على يد فعل كل فرد، الفعل الفردى، والفعل العام الذى يقوم به المجموع.

لكن بالتدريج، ومع مرور الوقت، لم يعد اليهود قادرين على تحمل هذه التعاليم القاسية التى تفرض مثل هذه المسؤولية الملقاه على عاتقهم. لقد ارادوا ان يروا مجئ المسيح خلال فترة حياتهم القصيرة، ويتمتعوا بالفوز

بالخلاص فى هذه الحياة، لذلك فقد اخترعوا مسيحيين مصغرين ملائمين لمكانتهم الخاصة، الاول هو السبت والثانى هو يوم الغفران، حيث يكون بامكانهم ارتكاب المعاصى، والذنوب ، والشهوات، لان كل هذه الاشياء سوف تغفر يوم السبت، حين يأتى ذلك المسيح الاسبوعى، فاذا كانوا فى هذا اليوم طاهرين، وانغمسوا فى صلواتهم، فان كل اخطاء الاسبوع سوف تغفر، وبنفس الطريقة كانوا ينتظرون المسيح السنوى، يوم الغفران، الذى يغفر ذنوب العام كله.

ان بطل اى جنس بشرى يضع لنفسه، دائما، هدفا مستحيلا لكن الجماهير سرعان ما تخترع اهدافا ملائمة وفى تناول اليد، يمكن الوصول اليها بسهولة حتى تشعر بالراحة والخلاص.

لكن علينا ان نضع ، ودائما المستحيل كهدف لنا، وعلى الجماهير ان تسعى دائما لايجاد الطريق نحو هذا الهدف، وهكذا، تقوم بتكييف حاجتها الماسة، وقوتها من اجل تحقيق هذه الفكرة التى يتعذر الوصول اليها لكن كلما سمت هذه الفكرة كلما سما نبل الجماهير واقتربت هذه الالهة الصغيرة الملائمة من هيئة ذلك الاله المروع غير المرئى

مع ظهيرة هذا اليوم، وكنا على وشك الوصول الى دير سيناء اذ كنا قد تسلقنا هضبة «مدين» ، التى ترتفع خمسمائة متر عن سطح البحر، وذلك بعد ان قضينا الليلة الماضية فى مقبرة اسلامية، حيث قمنا بنصب خيمتنا قرب قبر احد الاولياء (الشيوخ)، وقد استيقظنا عند الفجر على لسع البرد، اذ كان الثلج قد غطى خيمتنا، واكتسى السفح الفسيح امامنا بحلة بيضاء. وقد قمنا باقتلاع سقف الكوخ المحطم الذى يظلل المقبرة، واشعلنا النار، وقد شعرنا بالبهجة ونحن نرى السنة اللهب تتصاعد فى الهواء، فتحلقنا جميعا حول السنة اللهب، كى نتدفأ. وجاءت الجمال ايضا، ومدت رقابها فوقنا، بعد ذلك شربنا «الراكى» المصنوع من التمر، وسكبنا الشاى، ثم فرش البدو حصيرة صغيرة من القش على الثلج وركعوا متجهين نحو مكة، وبدأوا يصلون.

كانت وجوههم الطاهرة البريئة التى لوحتها الشمس المستغرقة بانجذاب صوفى بالهم الفطرى البسيط، مشرقة متألقة. وباجلال عظيم، كنت اراقب هذه الاجساد الثلاثة المهمومة الجائعة وهى تجالد من اجل الوصول الى الراحة، وتحقق ذلك، لقد رأيت هؤلاء الثلاثة، «منصور» و«طعمه» و«عودة»، وهم ينتقلون الى السماء. وكنت احس بان ابواب الجنة قد فتحت للحظات كى تسمح لهم بالدخول، ان جنتهم الخاصة، جنة المسلمين، وجنة البدو هى جنة: الشمس، الجمال الصغيرة، الماشية التى ترعى فى المراعى الخضراء، الخيام الملونة المصنوعة من وبر الجمال، النساء اللواتى يتبادلن الاحاديث فى الخارج، وقد طلين ايديهن بالحناء، وعيونهن بالكحل، ووضعن على الخدين شامتين صناعيتين، ولبسن اساور من فضة حول معاصمهن، وخلاخيل من فضة حول كواحلهن، طعام يغلى، أرز مع لبن، خبز ابيض، حفنة من التمر ابريق من الماء البارد، ثلاث خيام اكبر من الخيام الاخرى، وثلاثة جمال اكثر نعومه ورقة من الجمال الاخرى، وثلاث نساء اكثر جمالا من النساء الاخريات. انها خيام وجمال ونساء «منصور» وطعمة» و«عودة».

وحين وصلت الصلاة نهايتها، اغلقت الجنة ابوابها، ورأينا البدو الثلاثة يهبطون على سفح جبل «مدين» ورأونا نجلس قرب النار بانتظارهم، فتقدموا وجلسوا قربنا مرة اخرى دون ان ينبسوا ببنت شفه، كى يستأنفوا بصبر وجلد مهامهم الارضية الحقيرة

كان رفيق رحلتى «كالموهوس» قد نهض واخذ يلعب بالثلج، اما انا فقد مددت يدى نحو «طعمه» وقلت له بثقة:

«لا اله الا الله، محمد رسول الله»

صعق «طعمه» وذهل، كما لواننى قد اكتشفت سره، ثم نظرت الى ووجهه يزهر بالفرح، وصافحنى وشد على يدى

وانطلقنا، وقد سرت انا و«كالموهوس» على الاقدام، وذلك لبرودة الجو، ولنفاذ صبرنا، ولاننا لم نعد نحتمل ذلك الايقاع البليد الصبور، اقصد ايقاع الجمال.

كانت الجبال الجرانيتية الخضراء والحمراء الجافة، تتكشف بشكل غريب عن يميننا وشمالنا، وبين فينة واخرى كان هناك طائر صغير جميل يطير فوقنا، كان الطائر اسود اللون ذو رأس ابيض براق، وقد اطلق عليه كالموهوس. اسم «جوكي»

بعد ذلك ظهرت قافلة من الجمال عند نهاية الطريق، لقد لمعت امامنا للحظة عند سفح الجبل، مثل تماثيل منحوته في الصخر، توقفنا لفترة قصيرة، وحين وصل البدو حيونا بشكل حميمي:

- «السلام عليكم».

وحين وصلوا الى قادة قافلتنا الثلاثة، شاهدناهم وهم يصافحونهم بقوة، وينحنون على اكتاف بعضهم البعض، يتعانقون خدا لخد، ويتحدثون مع بعضهم البعض باصوات هامسة تحمل التحيات الطويلة والمستمرة.

لقد كان هذا اللقاء هو اكثر اللقاءات حميمية التى رأيناها طوال رحلتنا التى استمرت ثلاثة ايام. فحين يلتقي البدو فى الصحراء ينحنى كل منهم على الآخر، ويشد على يده بقوة. وتبدأ هذه التحيات البسيطة والتى تعود الى عصور قديمة بـ: كيف حالك؟ كيف حال زوجتك؟ كيف حال جملك؟ من اين اتيت؟ والى اين انت ذاهب؟ والرجل الذى يسأل يجيب، وحين ينتهى من اجاباته يقوم هو الاخر بطرح نفس التساؤلات، لتبدأ اجابات الرجل الآخر. وكانت كلمات مثل «السلام...» و«الله...» من اكثر الكلمات تكرارا فى هذا اللقاء لانها تحمل معان مقدسة سامية، يجب ان تتضمنها لقاءات الناس بشكل دائم.

كنت انظر بعاطفة كبيرة الى اطفال الصحراء هؤلاء، الذين يحملون تقاليدهم القديمة، وبساطتهم، ونفوسهم القادرة على الادراك والسيطرة على الامور. انهم يعيشون على حبات قليلة من التمر، على حفنة من القمح، على كأس من القهوة. اجسادهم نحيلة مرهقة، سيقانهم نحيفة وقوية مثل ارجل الماعز، وعيونهم وآذانهم متوقدة ومرهقة مثل عيون رآذان الحيوانات.

لم تتغير حياتهم منذ الاف السنين، فزعيمهم من جنسهم يقال له الشيخ ويرتدى البرنس الاحمر، ويحكمهم بناء على قانون البدو غير المكتوب. وهم شديدو التمسك بالدين من حيث الامانة على الاشياء، وبامكانك ان تترك اى شيئ فى الصحراء، وتصنع دائرة حول ذلك الشيئ، تصبح منطقة حراما لاتنتهك حرمتها.

الخيام هى اماكن سكنهم الدائمة، اما العرائش والأكواخ الصغيرة التى يقيمونها على عجل، فلا تبنى من اجل السكن فيها وانما من اجل استعمالها كمخازن لثروتهم المتواضعة مثل : الطحين الارز، القهوة، السكر التوباكو، وبامكانهم الانتقال الى مناطق اخرى، وترك اكواخهم الصغيرة هذه لعدة شهور، وتبقى هذه المنازل والاكواخ مناطق محرمة لاتنتهك حرمتها ابدا.

واذا مررت بواحة نخيل لرجل غريب، واكلت من ثمرها وتركت بذور التمر على شكل كومة حول الشجرة، فان صاحب واحة النخيل سيسر كثيرا، لانه احسن لعابر سبيل جائع. لكن اذا وجدت بذور التمر متناثرة بعيداً عن الشجرة فان صاحب الواحة، سوف يغضب كثيراً، ويبدأ بمطاردة اللص، ويثأر لنفسه بشكل همجى من جماله وماشيته.

انهم اكثر الشعوب فقراً فى العالم، واكثرهم كرماً وسخاء. انهم يسافرون وهم جائعون، ولايأكلون شيئا كى يتركوا دائما بعض الطعام فى خيامهم

ليقدموه للزائر الغريب، ولايستجدون ابداً حتى ولو كانوا جائعين. وفى « ريشو » حُدثَّت بقصة الفتاة البدوية الصغيرة التى كانت تراقب بعض السياح وهم يأكلون ، وحين رأوها ، وعرضوا عليها بعض الطعام رفضت، رفضت ذلك بكبرياء، وفى اللحظة التالية، اغمى عليها، وانهارت من شدة الجوع.

ان اعظم حب يكنه البدوى، هو حبه لجمله، وقد لاحظت كيف ترتعش شحمة آذان « طعمه »، « منصور » و« عودة »، مباشرة حين يسمعون اى خوار مهما كان بسيطاً ينطلق من احد جمالهم. كانوا يتوقفون، يسوون السرج، يتحسسون معدة الجمل، ويجمعون اى عشب جاف يجدونه كى يطعموا جمالهم. وفى الليل ، كانوا ينزلون السرج عنها، ويغطونها بالاقمشة الصوفية، ويفرشون منشفة على الأرض. وينيخونها عليها، ويزيلون الاوساخ من علفها حبة حبة ويحرص شديد.

وهناك اغنية عربية قديمة تستخدم البلاغة بشكل واضح، للتغزل بهذا الرفيق المحبب للبدوى، تقول الاغنية:

- « الجمل يسير فوق الرحل ويسير قدماً للامام انه صلب كخشب التابوت. سناماه راسخان مثل باب الحصن العالى، واثار الحبل على ضلوعه، كآثار بحيرة جافة مليئة بالحصى. جمجمته صلبة كالسندان، حين تلمسها تحس كأنك تلمس مبرداً، هذا الجمل، هو بالضبط مثل قناة مياه بنيت على يد فنان اغريقى ماهر، قام بتغطية ذروتها بالقرميد »

تركنا الجمال خلفنا، وهرعنا نصعد الجبل، نهتز من رعشة التوقع، لاننا استطعنا اخيراً ان نلقى نظرة على الدير، عبرنا بركة ماء راكدة، بعض اشجار النخيل، وكوفاً حجرياً. وفى الاسفل، بعيداً عنا، كان هناك صليب حديدى مستند الى احدى الصخور. واخيرا ها نحن نقترب من الدير.

وفجأة ، صرخ «كالموهوس» ببهجة وهو يقف على قمة الصخرة:
- «الدير!!»

وفي الاسفل وعلى تلك الرقعة المنبسطة من الارض الواقعة بين جبلين شاهقين، ظهر امامنا دير سيناء الشهير، مثل حصن منبع محاط بغابات التوت، لقد ظهر اخيرا الهدف الذى كنا نسعى اليه من هذه الرحلة. لقد كنت طوال حياتى اتوق الى هذه اللحظة، اما الآن، وقد استطعت أن اقطف ثمار هذا الجهد العظيم وامسكها بيدى، فاننى اشعر بمتعه عظيمة، واشعر انه يجب ان اجلس بهدوء، وبلاكلام، إذ لا داعى للعجلة فى مثل هذا الظرف الفريد.

وللحظة من اللحظات شعرت بدافع يدفعنى للعودة من حيث اتيت، فقد كانت هذه المتعة القاسية تلمع داخلى كى لا اجنى واتمتع بالثمار التى كنت اتوق اليها. لكنه، وللاسف ، هبت نسمة رقيقة محملة بعطر الاشجار المزهرة كأشجار اللوز، فتقهقرت ثورة روحى، وفاز ذلك الانسان الداخلى الذى يتلطف بقبول البهجة والمتعة. واستأنفت السير قدما نحو الامام، وكان كالموهوس ايضا يركض امامى وهو يغنى.

الآن نستطيع ان نتبين الدير بسهولة. اشجار التوت، الابراج، الكنيسة واشجار السرو، وخلال برهة قصيرة كنا قد وصلنا الى الحدائق، فوثب قلبى دهشة وفرحاً. ورفعت نفسى فوق السياج ورأيت. رأيت هذه الاشياء التى تتلألأ تحت الشمس، وسط هذه الصحراء، رأيت اشجار الزيتون، اشجار البرتقال، اشجار الجوز، اشجار التين، واشجار اللوز المزهرة الضخمة. دفء لذيذ، اريج وطنين حشرات عاملة صغيرة.

ولفترة طويلة استمتعت بهذه الابتسامة التى تشرق من وجه «الرب» الذى يحب البشر، والذى خلق من الرمل والماء والجمال البشرى.

الآن، وبعد ثلاثة ايام من مواجهة الوجه الآخر للرب، ذلك الوجه المرعب، العقيم، الوجه الجرانيتى لدرجة اننى قلت لنفسى: هذا هو الاله الحقيقى، النار التى تحرق، والجرانيت الذى لم ينقش رغبات البشر، لكن الآن وانا استند الى

الجدار، فى هذه الجنة المزهرة، عشت اجواء هذه الكلمات الصوفية:

-«الرب دمعه مرتعشة رقيقة».

يقول بوذا:

-«هناك نوعان من المعجزات: معجزات الجسد، ومعجزات الروح، وانا لا اؤمن بالاولى ولكننى اؤمن بالثانية».

وقد كان دير سيناء احدى معجزات الروح، فهذا الدير الذى مايزال قائما منذ اربعة عشر قرنا، كان قد بنى حول نبع ماء فى هذه الصحراء القائظة الحارة، وسط قبائل السلب والنهب تنتمى الى اديان معادية، ولغات اخرى، مايزال يتسامى مثل حصن منيع، ويقاوم القوى الطبيعية والبشرية التى تحاصره

بعد رحلة استمرت ثلاثة ايام، فى هذه الصحراء العابسة، وجدت قلبى يثب، لحظة مشاهدتى اشجار اللوز المزهرة التابعة للدير، لقد شعرت بان الضمير الانسانى السامى يتشكل هنا، وهنا تنتصر الفضيلة على الصحراء.

وانا اتجول بين واحات النخيل التابعة للدير، اصبحت انسانا شرقيا، فاناهنا وسط هذه الجبال الواردة فى الكتاب المقدس، اقف على هذا المنظر الرائع الذى ورد ذكره فى العهد القديم. حيث يرتفع امامى من جهة الشرق «جبل المعرفة» المكان الذى ثبت فيه «موسى» الافعى النحاسية. وخلف هذا الجبل مباشرة، تقع ارض العماليق وجبال العموريين، اما صحراء النقب، وجبال الادوميين، فانها تمتد شمالا على طول الطريق المؤدى الى صحراء مؤاب. والى الجنوب يقع خليج فاران «خليج العقبة» والبحر الاحمر. واخيراً باتجاه الغرب سلسلة جبال سيناء، «القمة المقدسة» المكان الذى تحدث فيه الرب الى موسى، وعلى بعد مسافة قصيرة منه دير «سانت كاترين».

بين الجبال. وعلى ارتفاع الف وخمسمائة متر، بنى دير سيناء على شكل حصن مربع، بابراج وكوى ، نظرت الى ساحته العظيمة. كانت الكنيسة تتألف فى منتصفه، والى جانبها جامع ابيض صغير، حيث يتحد الهلاك مع اخيه الصليب في هذا المكان، وحول المكان يلمع هذا البياض، الثلجى الذى يغطى اكواخ الرهبان، المخازن ، وبيوت الضيافة

كان هناك ثلاثة من الرهبان يجلسون فى الشمس ليدخلوا الدفء الى اجسادهم، وكان صدى كلماتهم يتردد خلال ذلك الهدوء الصباحى العميق. كان احد الرهبان يتحدث عن الأشياء الغريبة التى رآها فى امريكا: السفن ، الجسور، المدن، والمصانع، وكان الآخر يصف كيف يشوون الحمل على النار فى بلدته «ليدوريكى» ، اما الثالث فقد كان يعدد معجزات القديسة «كاترين» كيف اخذها الملاك من الاسكندرية الى قمة جبل «سانت كاترين» وكيف ان اثر جسدها مايزال باقياً، على الصخرة التى وضع جسدها عليها.

كانت حديقة الدير تلمع تحت الثلج والشمس، وكانت اشجار الزيتون تتمايل بهدوء وثمار البرتقال تتلألأ تحت ظلال اوراقها الداكنة، واشجار السرد تتسامى بزهد على شكل صف اسود طويل، ان التأمل فى كل هذا ، يحدث شعوراً بالخوف داخل النفس الانسانية، وببطء، وبشكل متناغم، مثل انسان يتنفس، يتصاعد اريج اشجار اللوز المزهرة، ليثير حساسية انفك، انفك وفكرك.

لقد استغربت، وتساءلت، كيف استطاع هذا الدير الحصن ان يقاوم كل هذه العواصف، طوال هذه القرون، ولم يسقط خلال احدى هذه العواصف. منذ سنوات والتعبير المحكم الذى اطلقه القديس انثونى، ذلك القديس الصلب المتوحد، مايزال يثير ويهيج قلبى بحزنه الانسانى العميق:

- «اذا بقيت فى الصحراء، وسكن قلبك وهدأ، ثم سمعت فجأة صوت دورى، فان قلبك لن يعود قادراً على استرداد هدوءه وسكينته»

راهب ناحل صغير ، تسلق البرج، وصعد الى المكان الذى كنت اقف فيه. كان راهباً كريتيا فى الثامنة عشرة من العمر، واخذنا نتحدث . كانت الظلال

الزرقاء تتماوج فى عينيه، ويلتمع شعر لحيته وخديه الكثيف. كلما وقعت عليه الشمس، وبعد فترة قصيرة، اطل راهب عجوز طيب ولطيف، فى العقد الثامن من العمر، من احدى الكوى، وصعد من باب احد الاقبية الأرضية وهو يسير بتثاقل. واتجه نحونا، كان يبدو متعبا ومرهقا، ولم تعد لديه القوة للرغبة فى آى شيئ، سواء اكان ذلك الشيئ طيبا أم خبيثاً. كانت احشاؤه مثل احشاء «بوذا» التى كان يريد لها ان تفرغ من أى شيئ.

جلسنا ثلاثتنا على مقعد طويل فى الشمس، واخرج الراهب الشاب حفنة من التمر من جيب قميصه وقدمها لنا. فرك الرجل العجوز حبة التمر على ركبته، واخذ يخبرنا عن كيفية بناء الدير، وكيف قاوم وصمد طوال هذه القرون العديدة، وبينما كنت اجلس على هذه الحال، فى الشمس، محاطاً بهذه الجبال التى لاتصدق، بدت لى اسطورة هذا الدير، وكأنها حكاية حقيقية بسيطة وساذجة. -«حول البئر الذى جاءت اليه بنات النبى شعيب لسقاية أغنامهن، وفى كل بقعة احترقت فيها هذه الغابات، ولم تتلف، وانما عادت للنمو من جديد، قام «جوستنتيان» ببناء الدير. وفى نفس الوقت ارسل الامبرطور مئات العائلات من «بونتوس» و«مصر» للاستقرار قرب هذا الدير، ليصبحوا حراسه وخدمه.

بعد قرن من الزمان جاء «محمد» صلى الله عليه وسلم الى هذا العالم، ومّر من جبل سيناء، وماتزال آثار اقدام جملة باقية على رقعة جرانيتية حمراء. وقد دخل الى الدير، واستقبله الرهبان بترحاب عظيم، وقد سّر «محمد» لهذا اللقاء وقدم لهم ميثاقه بصورته الجديدة «الاختنيم» achti-name» ، حيث مايزال هذا العهد مكتوبا بالحروف الكوفية على جلد غزال الروّ، ومختوما بختم النبى.

لقد قدم «محمد» فى هذا الميثاق الجديد لرهبان سيناء امتيازات عظيمة وكثيرة، ان اى راهب فى سيناء يتخذ ملجأ فى الجبال، او فى السهل، اويقيم فى كهف او حصن صغير، اويقيم فى الصحراء، او اى بيت من بيوت العبادة

فاننى سأكون معه، وساحميه من اى اذى، وسوف ادافع عنه فى أى مكان يوجد فيه، فى البر والبحر ،فى الشرق والغرب، فى الشمال والجنوب، ان كل هؤلاء الذين نذروا انفسهم لعبادة الله، فى الجبال وفى الاماكن المقدسة، لايتوجب عليهم دفع الضرائب، او عشر محاصيلهم، ولاتتوجب عليهم الخدمة فى الجيش او دفع الجزية. ويجب ان يتركوا ليعيشوا بسلام وامان لان جناح الرحمة يشملهم.

وخلال قرون عانى الدير من لحظات عصيبة، فقد اصبح الخدم الذين ارسلهم «جوستنتيان» مسلمين، ومارسوا التعذيب على الرهبان من اجل انتزاع الطعام والمال منهم، ومن جراء هذا الخوف فقد بقى الباب الكبير مغلقاً بشكل دائم، وكان الرهبان يتصلون ببعضهم البعض من خلال ممرات ارضية تتصل بالحديقة، ومازال الابواب الحديدية القليلة الارتفاع، والممرات الارضية المظلمة باقية حتى الآن، وماتزال هناك مقصورة كبيرة بحجم سبعة رجال تدعى «توفارا»، حيث كان الناس، وكانت المواد يوضعون فيها، ويرفضون بواسطة بكرة.

اما الآن فقد ذهبت سنوات البطولة والرعب، فقد روض اولئك الخدم نوعا ما، واوقف البدو غاراتهم، وبقى الباب الكبير مفتوحاً دون خوف».

كنت ارتعش وانا استمع الى صوت الراهب العجوز الخفيض، لم يكن هذا الصوت من هذا العالم، كان صوتا يعيد الجدران البيزنطية الى الحياة، ويجعلها تحيط بى من كل جانب، ويملأ الجو بالقديسين والشهداء، اما الراهب الكريتى المتصوف الشاب الذى كان يجلس الى جانبى فقد كان ينصت وهو يفغر فاه الى هذه الاسطورة العجيبة. وفى الساحة الواقعة فى الاسفل، كان الرهبان مايزالون يتداولون الاحاديث القصيرة بهدوء. وكان هناك رهبان آخرون فى الاقبية يعاينون ويزنون القمح التى احضرها العرب، ولبرهة قصيرة فتح باب المطبخ، والقيت نظرة سريعة على الطاولة الكبيرة التى كانت تتألف تحت كميات كبيرة من جراد البحر التى نقلت الليلة ماقبل الماضية من بحر العقبة وكان الاب «باهوميوس»، الفنان ، يجلس على عتبة حجرته، ملتفا ببطانية،

ويقوم يتلوين صدفة ضخمة.

نهضت، وسرت نازلا نحو الشارع العريض، كان الكهان يلعبون بالثلج، يصنعون كرات من الثلج ويتقافزون بمرح مثل الاطفال لقد كانوا مبتهجين جدا بسقوط الثلج، فالصحراء سوف تعشب ، وسوف تجد النعاج، والشياه، والخراف ماتأكله، ويظل الناس على قيد الحياة.

اما الرجال والنساء الذين انحدروا من سلالات الخدم القدماء فقد وصلوا وتكوموا على عتبة الدير، كان الرجال يدخنون ويتحدثون بصوت عال وبشكل يدل على الغرور، اما النساء فقد كن حافيات الاقدام، قذرات ملتفات بالملاءات السوداء، وكانت شعورهن مربوطة مثل غرة الفرس على جباههن بعد وصولهن مباشرة قامت كل واحدة منهن بفتح ملأمتها ، واخرجت منها طفلا رضيعا ووضعته على الصخور. وقد تجمع حشد كبير من الاطفال وهم يمدون ايديهم، وينتظرون ال «توفارا» ان تفتح ابوابها كي تلبقى اليهم حصصهم اليومية من الطعام. حيث كانت تقدم ثلاثة أرغفة صغيرة لكل رجل، ورغيفان لكل امرأة وطفل. وكان يتوجب على كل فرد منهم ان يأتى شخصيا كى يتلقى حصته، وكل يوم يتوجب عليهم ان ينطلقوا من بيوتهم قبل الموعد بساعات، ويسيروا تحت لسع الحر والبرد للوصول الى هذا المكان، هكذا كانوا يعيشون وكانوا يقومون ايضا بجمع ثمار الخروب ويجففونها ويطحنونها ويصنعون الخبز.

وكان المطران، أباتى الدير، وحاكم الصحراء، يتكئ على الحائط، ويلقى وهو يضحك ببعض القبعات الملونة التى احتفظ بها للهدايا ، باتجاه الاطفال، اما الفتيان العرب فقد كانوا ينفجرون ضاحكين، حين يمسكون بهذه الهدايا غير المتوقعة وهى تنزل عليهم من الاعلى، وسرعان ماأخذت رؤوسهم الصلبة السوداء، تبرق بالالوان الصفراء، والحمراء والخضراء، كل رأس حسب القبعة التى وضعت على رأسه.

كنت انظر الى هؤلاء الاخوة البعيدين بمشاعر عميقة، فمنذ قرون وحتى

الآن، وهم يطوفون حول هذه التخوم البيزنطية، حيث يلقى اليهم الرهبان ارغفة خبز النخالة الصغيرة هذه التى تشبه الحجارة لصلابتها، انهم يعيشون ويموتون ، وهم يخدمون، ويخيفون هذا الدير.

وقد عدد الرهبان موروثاتهم وتقاليدهم البدائية لى. ولم يتغير شيئ على هذه الموروثات والتقاليد منذ الاف السنين، انهم يعيشون كما كانوا يعيشون فى عصر «شعيب» حمى«موسى» انهم يتزوجون ويموتون، ويفعلون نفس ماكانوا يفعلونه فى ذلك الوقت، الفتيات فقط هن اللواتى يرعين الغنم، دون ان يزعجهن او يتحرش بهن احد، وحين يقع شابان- شاب وفتاة- فى الحب، يهربان سراً فى الليل ويصعدان الى الجبل، حيث يبدأ الشاب بالعزف على القيثار، وتبدأ الفتاة بالغناء. دون ان يلمس احدهما الآخر ابداً. وحين يريد الرجل ان يطلب يدها لكى يتزوج منها، يذهب الى خيمة «حميه» والدها، ويجلس فى الخارج وينتظر عودة الفتاة من رعى الغنم، وما ان تظهر حتى يقفز الشاب، ويرمى ببرنسه فوقها ويغطيها.

وحين يأتى وقت عقد قران الزواج، ويدفع العريس مهر العروس يقوم «الحموان» والد العريس ووالد العروس باخذ سعفه نخيل، ويقطعانها من النصف، ويقتسمانها بينهما، وبعد ذلك يقول والد العروس.

- «اريد الف جنيه مهرا لابنتى»

وفى العادة يكون العريس لايملك جنيها واحدا، لكن البدو يفتخرون دائما باتباع هذا التقليد اللطيف الخاص بطقوس الزواج.

وما أن يشير«الحمو» الى الالف جنيه، حتى يقف الشيخ على قدميه ويقول:

-«أن ابنتك تساوى الفى جنيه، والعريس يريد ان يدفع لك هذا المبلغ، لكن من اجلى، اطرح خمسمائة جنيه»

ويجيب والد العروس:

-«من اجل الشيخ سوف اطرح خمسمائة جنيه»

ثم يبدأ بقية الاقارب بالنهمض وهم يقولون:

- «طرح مئة جنيه أخرى من اجلى! ومئة اخرى من اجلى! وخمسين جنيها من اجلى! وعشرين جنيها من اجلى!...»

ويظل الأمر على هذا الحال الى ان يصل المبلغ الى جنيه وفى تلك اللحظة، تطلق النسوة اللواتى يطحن القمح داخل الخيمة زغرودة عالية:

-«لو..لو....لو...لو...

وبعد ذلك ينهض والد العروس، ويقول:

- «حسناً من اجل النسوة اللواتى تطحن القمح، فاننى ساقدم له ابنتى مقابل نصف جنيه».

بعد ذلك يعقد القران، فيأكلون ويشربون ويبذرون كل مايملكونه فى الليلة الاولى، وبعد ذلك تبدأ حياتهم اليومية المرعبة فى هذه الصحراء.

لكننا الآن فى عز الظهيرة، وقد ذهبنا الى قاعة الطعام فى الدير، قاعة ذات اقواس، من طراز بناء العصور الوسطى، بحروف قوطية منقوشة على الجدران الحجرية والتى قام اللاتينيون الذين عاشوا مع شعبنا فى سيناء لسنوات عديدة ببنائها، وكان الاب «باهومبوس» قد رسم رسومات هذه الجدران بحميمية صادقة،ببساطة طفولية، وماتزال هناك لوحة جدارية رائعة فى زاوية من زوايا الغرفة تصور المجئ الثانى للمسيح، وتحت اللوحة يوجد ثلاثة ملائكة يمثلون الثالثوت المقدس، وبين اجنحة الملائكة الثلاثة. نرى العالم السماوى، حيث نرى رجلاً وامرأة ينحدران من سلالة الرب.

جلسنا الى طاولة طويلة، فاحضر الطعام، وكان عبارة عن جراد البحر. خضروات، خبز، والقليل من الخمر. وبدأ الرهبان الذين يبلغون عشرين راهباً الاكل. دون ان ينبس اى منهم ببنت شفة. وتقدم القارئ نحو منبر الوعظ، واخذ يقرأ التأويل المعاصر للعهد الجديد. فقرأ «عودة الاسراف».

وخلال هذه الشهور التى قضيتها هنا، اختبرت وعاينت هذا الايقاع للعديد من الاديرة التى زرتها. حيث تأخذ الوجبة طقسها الاسطورى العظيم الذى

يليق بها.

قال احد الحاخامات ذات مرة:

-«حين يأكل الانسان الفاضل الطاهر، فانه يحرر الرب الموجود في الطعام!»

وبتبرات خارجة من الانف، بدأ المقرئ يشدو ويرتل عن معاناة الولد المسرف، وكيف انه دفع لأكل القشور، وكيف شعر بالحزن، وكيف شعر ذات يوم انه لم يعد قادراً على تحمل ذلك، فعاد الى والده. ومنذ ذلك اليوم لم يتحرك من بيت والديه الثرى والنبيل.

اما انا فقد كنت وسط هذا الجو المسيحي، المكرس للصبر، غارقا في التفكير:

لوكان هناك دير آخر فقط، احبه لم احببت هذا الدير، دير أكثر ملاءمة ينسجم بشكل فعلي مع سمو روحنا الحديث. لو كان هناك دير آخر، لطلبت منهم ان يقرأوا ملحقاً رائعا، اضافه احد معاصرينا الى معنى الاسراف:

القد عاد المسرف الى بيت ابيه، منهكاً مهزوماً، ويائسا. وفي الليل حين تمدد على سريره الناعم لينام ،فتح الباب بهدوء، ودخل اخوه الاصغر وقال

-«اريد ان اغادر، ان بيت ابي لم يعد يناسبني!»

وأخذ الولد الذي عاد هذا المساء مهزوماً،يقبل اخاه، ثم اخذ ينصحه:

«هذا هو ماحدث معي، لكن عليك ان تتصرف هكذا، لقد هزمت، لكن عليك ان تكون أقوى مني، لاتخجل من نفسك كما فعلت انا، ولاتعد ابداً لهذا البيت»

وقبله قبلة الوداع، وسار معه الى الباب، وصرخ بفرح:

-«ربما اراد ان يغادر البيت ليكون اقوى مني، ولن يعود ثانية»)

هكذا جاءني هذا الهاجس الشيطاني، بينما كنت آكل مع الرهبان بهدوء، وانا ابتسم واستمع الى تلك الحكاية، لقد انتقل الاسراف الى داخلي، اما الدير كان يؤنسني فقد اخذ يهتز من اساساته.

انتهى الغذاء، وجلس الرهبان فى الخارج تحت الشمس، بينما دخلت انا والاسقف، وحافظ غرفة المقدسات ورئيس الدير الى داخل الكنيسة.

وفى الكنيسة يبهر المرء ويصعق لهذة الثروة، فالجو يزدحم بالشمعدانات الفضية، والايقونات الذهبية تسمو بابهة وفخامة. والجدران والاعمدة تلمع باعداد لاحصر لها من الايقونات التى لاتقدر بثمن. وحين فتح حافظ غرفة المقدسات، صناديق الذخائر الضخمة، كوّم الحافظ هذه الكنوز المقدسة امامنا، وكانت عبارة عن: تذكارات مقدسة، اردية كهنوتية ذهبية، زخارف فخمة فاتنة من الفن البيزنطى مغطاه بشكل كثيف باللآلى، تيجان تتلألأ بالحجارة الكريمة. منحوتات عاجية، صلبان ثمينة تعاويذ، وصولجانات.

كل هذا الكنز الذهبى واللؤلؤى خزن بعيدا فى الصحراء منذ قرون عديدة!

لكن الشيئ الأكثر غرابة واعجازا، هو الكنيسة فهى مليئة باكثر الايقونات البيزنطية اناقة ودقة، ايقونات لم ار شبيها لها طوال حياتى، انها متحف فريد من نوعه لسير القديسين فى العالم، وفى الجزء الناتئ من المذبح هناك رفعة فسيفسائية كبيرة جدا لتجلى المسيح، وعلى الشمال واليمين، نرى موسى وهو يتحدث مع الرب ويتلقى الالواح، وفى الأسفل الحواريون الاثنى عشر والرسل السبعة عشر، وفى الزوايا «جوستينيان» و«ثيودورا»

اضاء حافظ غرفة المقدسات الشموع وبدأ يصلى، وبخشوع دينى فتح التابوت الكبير الذى يسجى فيه جثمان القديسة كاترين»، كانت يدها مغطاه بالاساور والتاج الملكى يزين رأسها وبشعور عميق ، قام «كالموهوس» المنجذب صوفيا لهذا المشهد ، بخلع الخاتم من اصبعه وقدمه هدية للقديسة.

وحين وصلنا الى مصلى «الغابة المقدسة»، ودخلنا المكان مثل «موسى»، حفاة الاقدام.

-«اخلع نعلك من قدميك، لان المكان الذى تقف فيه هو ارض مقدسة».

كانت الارضيات مكسوة بالسجاجيد الثمينة ، اما لوحة الفسيفساء اللامعة المصقولة ليد البشارة فقد كانت تغطى محراب المصلى، وقد كرس هذا

المصلى لعيد البشارة لان هذه «الغابة التى احرقت ولم تمت ولم تدمر» ترمز الى العذراء التى تلقت الرب فى جسدها.

وتحت طاولة المصلى، هناك قطعة رخامية تغطى بقعة معينة، البقعة التى لاحت فيها «الغابة المقدسة» امام عينى «موسى»: «فى احد الايام، حين كان موسى يرعى القطيع على الجبل، رأى فى الاسفل، وبالقرب من الماء ان هناك غابة تحترق .الا ان النار كانت تتدفق كنبع ماء، لذلك فقد بقيت الغابة محافظة على خضرتها، ومحافظة على اوراقها وبراعمها الصغيرة...

ودخلنا الى المكتبة، وهى مكتبة مشهورة بمخطوطاتها المنسوخة باليد، وهى مخطوطات مكتوبة بالحروف والخطوط الاغريقية، والعربية ، والكوفية، والسريانية. وقد توقفت لفترة طويلة امام الكتب القديمة، والمآذن الملونة، والمخطوطات الغامضة الساحرة التى لايسير غورها. فمن يدرى، فربما كانت بعض اعمال الكتاب الاغريق مثل «سوفوكليس»، «سافو» و«اسخيليوس» التى فقدت اصولها، موجودة ومحفوظة هنا مترجمة الى العربية.

لقد تحدثت مع الاسقف «بورفايرون الثالث» وهو رجل ورع طاهر، ومتعلم، وهو يعيش فى الدير مع الرهبان، ويناضل من اجل ان يعيد لهذا الدير اعتباره الكبير، كما كان فى السابق، وهو يبذل قصارى جهده لاجل هذا الغرض.

وقد يبوح لى بكل حيمية واندفاع عن خطط الاصلاحات التى ينوى تنفيذها:

-«ان ما نفتقر اليه هنا فى هذا الدير بشكل رئيسى هم الرهبان المتعلمون الشباب، فلدينا كنوز عظيمة فى مكتبتنا، ولانستطيع الاستفادة منها، والاجانب يريدون نشر هذه الاعمال، لكننا نحتفظ بكنوزنا هذه، آملين ان نتمكن فى اقرب فرصة من نشرها بلغتنا الاغريقية، كى يشرق عصر التنوير من هنا، من سيناء.

لقد ارسلنا الشباب للدراسة من اجل هذا الغرض ونحن نعد العدة من اجل ان تكون لنا مطبعتنا الخاصة، ومن اجل اصدار نشرة دورية خاصة بنا. ونحن

نخطط من اجل استضافة بعض اليونانيين الذين يتمتعون بمواهب خاصة، وسوف نوفر لهم كل الظروف الملائمة كى يعيشوا ويعملوا هنا بارتياح وهدوء.

نحن نريد ان نفعل كل ما نستطيع، وبالوسائل الحديثة من اجل اتمام المهمة المقدسة لدير سيناء، حتى الآن استطعنا الاحتفاظ بهذه الكنوز التى تراها فى هذه المكتبة. وبالرغم من الاخطار، فقد استطعنا ان نحقق وبنجاح كبير الجزء الاول من مهمتنا الاوهو صيانة هذه الاعمال، اما الآن فاننا ننوى الشروع فى الجزء الثانى، وهو طباعتها.

نحن نناشد كل اليونانيين: ليأت كل عشاق الكلمة الى هنا لمساعدتنا، وسوف نقدم لهم كل التسهيلات المتوفرة لدينا، وسوف يحققون العظمة والشهرة من خلال تحقيق وطباعة مخطوطاتنا.

ليعرف اليونانيون ان المدن اليونانية الهلينية توجد هنا، فمنذ اربعة عشر قرنا وهى ما تزال قائمة هنا فى هذه الصحراء. دعهم يأتون كى يشاهدونا، ويتعرفوا علينا

انظر الى سجل الضيوف، خلال ثمانية وعشرين عاما، اى من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٢٥ لم يأت الاخمسة وثلاثون من السياح الاغريق الى هنا، لكن انظر الى عدد الاجانب الذين جاءوا الى هنا من اطراف هذا العالم، انظر، مئة وخمسة واربعون انجليزيا، تسعة وستون فرنسيا، ثمانية وخمسون امريكيا، ستون المانيا، قارن بين هذه الاعداد، وبين عدد اليونانيين الذى وصل الى خمسة وثلاثين فرداً فقط. خمسة وثلاثون يونانيا خلال ثمانية وعشرين عاماً!»

كانت عينا الاسقف الطاهرة تومض بشعور عميق، وهو ينظر الى ارض الدير المقدسة، وهى تتلألأ بالاجواء الاغريقية، وماتزال تمارس عملها فى وحشة هذه الصحراء مثل الرهبان الندكتسنس.

لم انبس ببنت شفة، فقد كنت قلقا من الحرب، لم يعد الشباب يأتون الى هنا، هؤلاء الشباب

تقديم العون والمساعدة لهذا الدير. واذا لم ينبرى الشباب لهذا العمل، فان هذا الدير سوف يسحق بعاصفة مدمرة.

لقد ملأ هذا اليوم قلبي بالهلع. الاردية كهنوتية مذهبة، اللآلئ، صور ملونة للقديسين، الابن المبذر المسرف، كل هذه الاشياء اندمجت فى هذه البنية المقدسة، وفى بوتقة الآلام والمحن.

وخلال الليل، وفى ساعات ماقبل انبثاق الفجر، فى الساعة التى تقرع فيها الاجراس، رأيت هذا الحلم الشرير الآثم:

«لقد بدا لى هذا الدير وهو يصيح بالغجر، لقد دخلوا الى الكنيسة بمزاميرهم، ودفوفهم، بكلابهم وغرابيلهم، ونصبوا مخيمهم هناك. وقد مدوا حبلاً، من الحاجز الايقونى الذى يفصل المذبح عن الجزء الاساسى من الكنيسة حتى مدخل الكنيسة، وعلقوا بطانياتهم الحمراء والزرقاء، وملابسهم المبلولة.

لقد اصبحت وجوه النساك القاسية اكثر عنفاً وضراوة، وتطايرت اوراق طويلة بحروف حمراء من افواههم، «هو المهيمن على الطبيعة يتسامى فوق الطبيعة» وكان هنام القديس «اثاناسيوس» يعظ «مالم تستهونا المغريات، ونعانى من الخطايا، فاننا سندخل الى مملكة السماء وجاءت هذه الكلمات من القديس «مارتبنيانوس» : «تقدم ياأخى نحو الصحراء ، كى تنجو» اما «ثوروثيوس»، فقد كان ينظر من فوق احد الاعمدة ويعظ: «ياأخى ، تغلب على هذا الجسد».

اما الغجر فقد قاموا بتعليق احد الدفوف ذات الاشرطة الحمراء، على ايقونة العذراء، والقوا برداء انثوى عليه بقع سوداء قذرة ، على الضريح. وجلست امرأة حيزبون عجوز حولاء على عرش الاسقف، لتعلم ثلاثة من صغار الغجر قراءة الطالع. وكان الرجال الشباب يقرعون الطبول ويرقصون، وكان رجل عجوز يعزف على الكمنجة بفرح جنونى، وفجأة ، اختفى كل شيئ، ولم يبق الا قرد ليملأ هذه الظلمة المترامية، لقد جلس متربعاً، وعلى رأسه طاقية حمراء صغيرة، يحاول بهذوء ان يزيل بذور الرمان الفاسدة».

لقد تسلقنا القمة المقدسة، وذلك الحصن الشاهق الذى رأى فيه «موسى الرب وجها لوجه، وتحدث معه. ومن بعد، بدت قمة الجبل الناتئة مثل عرف خنزير برى.

لقد قال النبى:

- «لماذا تضع فى الاعتبار الجبال الاخرى بنباتاتها، وقطعانها، وامتيازاتها؟ هناك جبل حقيقى واحد فقط، انه جبل سيناء، الجبل الذى هبط عليه الرب واقام فيه».

اما «يهوه» شيخ اسرائيل المرعب، فقد جلس على قمة جبل الاولمب الخاص بالعبريين، لقد جلس على قمة الجبل مثل شعلة من النار، واخذ الجبل يحترق بلا لهب، وكما يقول «اثاناسيوس»:

- «لايلمس احد هذا الجبل، ان كان من يلمس جبل سيناء، سواء اكان انسانا ام بهيمة، فانه سيموت! وكل من يرى وجه الرب سيموت! لقد كان الرب، هو النار السماوية التى تحرق كل شيئ، وكان موسى هو الملقط الذى يحمل جمرة الرب المتقدة».

لقد كان «يهوه» هو هذه النار، وفى هذه الصحراء ذات الارواح التى لاتعد ولاتحصى، فان الالوهية التى تسيطر على هذا العالم كله وتحكمه، تمركزت فى اله قبلى عنيف وجسور، وهاهى حمى جنس بشرى واحد فقط. الا وهو الجنس العبرى وقد دلل على شخصيته بالنار.

وكل شئ كانوا يلقون به الى النار، اليه، لاشباع نهم «يهوه» الشره. لم يكن ذا فائدة، ولقد قدموا لـ «يهوه» او للنار، ابناءهم البكر، من بنين وبنات

لقد صعدنا الثلاثة الاف ومئة درجة التى تصعد من سفح الجبل الى القمة المقدسة وكان الاب يسير خلفى مع «كالموهوس». وكان هذان الفنانان مستغرقين فى نقاش. كان ذلك الراهب البسيط الودود، الزاهد، يسير ملتصقا بـ «كالموهوس»، يستمع الى هذا الفنان الذى جاء من ذلك العالم الخارجى العظيم، حاملا معه معلومات هامة حول كيفية مزج الالوان وكيف صنعت

الالوان الزيتية لتجف بشكل أسرع، وماهى افضل اقلام الكربون للرسم هذه الايام.

مررنا عبر باب قوس مفتوح على تلك الصخور، وفى تلك الايام التى كان فيها الرجال يرتجفون حين يلمسون القمة، كان كاهن الاعتراف يجلس هنا ويستمع الى اعترافاتهم. يقول القائد داود:

-« ان من يصعد الى جبل الرب، يجب ان يكون ذا يدين ملوثتين وقلب طاهر. والا فانه سوف يقتل.

اما الآن فقد اقفر هذا الباب، ومات كاهن الاعتراف، ولم تعد لدى هذه القمة المقدرة على القتل.

واثناء صعودنا درجات اخرى، مررنا بالكهف الذى رأى فيه «الياس» رؤيته العظيمة: لقد دخل الكهف، ولدهشته سمع صوت الرب:

- «انطلق غداً وقف امام الرب على الجبل، وسوف تمر بك ريح عاتية فتحطم الجبل، وتسحق الصخور، لكن الرب لن يكون فى الريح، وبعد الريح سيحدث زلزال، ولكن الرب لن يكون، فى الزلزال وبعد ذلك يأتى دور النار، ولكن الرب لن يكون فى النار، وبعد النار سوف يهب نسيم رفيق، وفى هذا النسيم سيكون الرب».

هكذا تأتى الارواح دائما، بعد العواصف، والزلازل، والنيران، يهب النسيم العليل، وهذا النسيم العليل سوف يأتى فى عصرنا، ذلك اننا نمر الآن فى زمن الزلزال.

وحين صعدنا أكثر، توقف «باهوميوس» واشار الى صخرة ناتئة وقال:

- «هنا وقف «موسى» فى اليوم الذى قاتل فيه العبريون العمالقة. وخلال الفترة التى كان يرفع فيها ذراعيه عالياً، كان اليهود يحققون الانتصارات.لكن حين بدأ يتعب واخذ يخفض ذراعية اخذ العبريون يستعدون للهرب، وفى ذلك الوقت جاء كاهنان هما «ارون» و«اور» ورفعا ذراعيه وابقياهما مرفوعين حتى مر كل الاعداء على حد السيف»

لقد غطى هذا الجبل باكمله بآثار اقدام هؤلاء العمالقة الذين كانوا فوق قدرة البشر.

وحسب الروح البريئة الساذجة التى يحملها «باهوميوس» فان كل هذه الاساطير تفترض احساساً تاريخيا نقيا وطاهراً، وقد تحدث عنهم كما لو كان يتحدث حول مخلوقات ماردة من ايام الطوفان، او ديناصورات ، او مخلوقات ضخمة، دون ان تكون هناك اشارة هلع اوشك بادية على وجهة.

حين وصلنا الى القمة بدأ قلبى يخفق بقوة، اذ لم تستمتع عيناى بمثل هذا المشهد، فقد كانت مدينة البتراء العربية كلها امامنا، مع تلك الجبال الفارقة فى الضباب الازرق الكثيف. والى الخلف كانت سلاسل جبال فيلكس العربية «اللازوردية» وكان البحر الاخضر يلمع مثل الفيروز، والى الغرب كانت الصحراء البيضاء المقفرة، تتبخر تحت الشمس، والى الخلف منها فى المدى البعيد جبال افريقيا.

منظر طبيعى غريب، بلاماء ،بلا اشجار، بلا غيوم، منظر مقفر، مثل منظر طبيعى على القمر.

هنا تجد روح الانسان المحبط او الفخور منتهى سعادتها.

دخلنا الى المصلى القائم على القمة، واخذ الاب «باهوميوس« » يحفر الارض باظافره ، محاولاً العثور على آثار الجدران القديمة للكنيسة البيزنطية . وكان يشير بانتصار الى الحجارة المنقوشة على الاقواس، وصفوف الشبابيك البيزنطية الضيقة، والصلبان، والحروف والآبار القديمة، كان يبحث بنشاط. وفجأة اطلق صرخة عظيمة لقد اكتشف حمامتين بيزنطيتين بمنقارين مشتركين على قطعة من الرخام، كرمز للروح المقدسة.

لقد ازعجنى ان نرى هذه الروح الطاهرة تسيطر عليه، بمثل هذا الهوس الكئيب فى ايقاف دقائق حياته والتوقف فى أى مكان يمكن ان يتوقف فيه، من اجل العثور على هذا الماضى، رافضاً ترك هذا الماضى يذهب فى حال سبيله. وهنا فوق هذا المكان حيث تحول الاله الى لهب مفترس متذبذب

لايدركه احد. وجدت روح البحث عن الآثار والصيانة التى يشمئز منها الانسان.

لقد استدرت نحوه وقلت:

-«ايها الاب باهوميوس هل تتصور كيف يمكن ان يكون الرب؟

نظر الى «باهوميوس» بفزع وفكر للحظة ، ثم قال:

- «مثل الاب الذى يحب ابناءه»

صرخت:

-«الا تخجل!! كيف تجرؤ ان تتحدث بهذه الطريقة عن الرب القائم على جبل سيناء؟ فالرب هو النار المستحوذة المسيطرة»

-«ولماذا تقول لى هذا؟

-«لانه يتوجب عليك ان تتخلى عن كل هذه الاطلال. وتدع الرب يحرقها، لاترفع يدك ضد الرب يا «باهوميوس»!

ارتعد بشكل مفاجئ، وجلس وهو خجل، وفتحنا سلة القش التى تحتوى على الطعام، وشربنا الخمر، واكلنا الخبز واللحم والبرتقال، وكنت احمل معى نسخه صغيرة من «هوميروس»، وبدأت اقرأ الابيات الشعرية السداسية، وكأننى اريد ان اغيظ الرب. وعندها رأيت سواحل اليونان تمتد امامى والهة الأوليمب، والاهاتها، وجميع الارواح تهبط وهى تضحك وتتحد مع البشر الارضيين.: ومن هذا الاتحاد، تعطى الولادة، ليس للمخلوقات الضخمة، او الغيلان، بل للابطال.

بدأ قلبى بالاستقرار، فهنا، فى هذا الدخان الاسود المتصاعد من مواقد نار اله السامية، يبدأ القلب الوحيد الزاهد بالاستيقاظ، ويصبح اكثر شجاعة ذلك ان كل الآثام، والنقائص، والحضارات، والرذائل التى يحملها الانسان، تعتبر اشياء غثة تافهة امام هذا الصراع الرهيب!

واذا حاول اله العبريين المخاتل هذا، ان ينتقد الانسان لتجاوزاته الصغيرة فى الحياة الاخرى، فاى انسان عظيم هذا الذى يستطيع ان يقف فى وجهه

ليدافع عن نفسه!

- «نعم لقد ارتكبت الاثم، لقد سرقت زوجة جاري وبقرته، فقد شعرت بالضعف امام غوايتهما، وقتلت عدوي لانه اراد قتلي، لقد قتلته بيدى هاتين اللتين ترتكبان الآثام وتتعبدان،لقد كذبت لاننى كنت خائفا، لقد كرهت أبى لانه وقف فى طريقي ولم يدعنى أمر، لقد كسرت كل اوامرك وتحديتها

لكننى روضت الارض، والنار، والماء، والريح، ولو لم اكن هنا لافترستك الحيوانات البرية والافاعى، لو لم اكن هنا لتعفنت فى المستنقع بفعل العبث والاهمال والخوف، لقد كنت انا الوحيد وسط مستنقع الدم والوحل الذى صرخ وطالب بالحرية، اننى اصرخ، اضحك، اكبو، واسندك كى لاتسقط»

هذا هو النوع من الحوار الذى تخيلت انه سيدور ذلك اليوم على قمة جبل سيناء، فهذه هى حجج وادلة الانسان، وهذا هو الحوار القائم بين الرب والانسان.

لكن «باهوميوس» كان قد انهك، وبدأ الظلام يهبط، فاحس بالبرد، وتقدم نحوى وانهضنى عن الصخرة التى كنت اجلس عليها وبدأنا ننحدر.

اتخذنا ممراً آخر خلال ذلك الشعب المغمور بالثلج وفجأة توقف العربى الذى كان يسير امامنا حاملا سلة الطعام، وهو منفرج الساقين فوق الثلج وصرخ بسرور:

- «أسد!»

وركضنا لنرى فرأينا آثاراً كبيرة لحيوان برى متوحش مطبوعة على الثلج. واطلق «باهوميوس» صرخة من خلال فكية المشوهين

- «أسد»!

وقفز «كالموهوس» من الفرح، لكن العربى اوضح لنا بان الاسود تخاف البشر وتغادر المنطقة فى اللحظة التى تشم فيها رائحتهم، فاستعاد «باهوميوس» توازنه اما كالموهوس فقد شعر بالحزن لافتقاده مثل هذه الفرصة.

ومضيت قدماً، اتتبع آثار ذلك الحيوان ، وانا سعيد، واضعا فى ذاكرتى ان «يهوه» قد مر فوق هذا الثلج، واحس بالرعب، فاختفى فى هذه الصحراء.

والآن ،فقد تغلغل هذا الجبل كله فى هيئة واحدة، ليست هيئة «موسى» بالطبع، بل هيئة ذلك الانسان العامل البسيط الذى لم احب انسانا مثله طوال حياتى، انه «جورج زوربا» فبالنسبة لى، كان هو الرجل الوحيد الذى سينزل الآن على جبل سيناء حاملاً وصاياه العشر الجديدة. وزوربا عامل منجم عجوز، ذو روح مقدامة جسورة، وعقل نير، يرسل كل هذه الاشعاعات والتصدعات لقد عشنا معاً لمدة شهرين، خلال فترة زمنية عصيبة مليئة بالمشاكل. وهو الأن بعيد عنى، ولايستطيع ان يكتب بشكل منتظم لانه لايستطيع ان يحمل القلم بشكل جيد، انه يحمله كما يحمل الازميل ويدفعه بعنف فى الورقة.

وذات مرة كتب لى هذه الكلمات، التى مازلت احملها معى فى هذه اللحظة ، وانا انزل عن جبل سيناء ، فهى ماتزال محفورة بعمق على لوح ذاكرتى.

-«بناء على قوانينى فانا لا اخاف الرب، وانا لا اخاف الموت لانه لايعنى شيئا، مثلى تماماً فانا ايضا لا اعنى شيئا، وانا لا اخاف عناصر الطبيعة العظيمة مثل الطوفان ،الزلازل، الامراض والنساء، فمهما تفعل هذا العناصر فاننى اضحك واقول: زوربا، جورج زوربا، انت اعظم عناصر الطبيعة. انا السندباد البحار، ليس لاننى سافرت الى العديد من الاماكن، ولكن لاننى سلبت واغتصبت، وقتلت، وكذبت ولعنت، ونمت مع العديد من النساء. لقد كسرت كل الوصايا كم هى هذه الوصايا؟ عشر؟ لماذا لاتكون هناك عشرون وصية خمسون، مئة وصية، حتى لايكون بامكانى كسرها جميعا! وحتى لو كان هناك رب، فلن اشعر باى خوف من الظهور امامه. لاننى (لا اعرف كيف اشرح لك حتى تفهم) ان كل هذه الاشياء لاتبدو لى انها تحمل اية قيمة.

هناك مثل يقول ان الرب لن يسألك ماذا اكلت. وانا اقول انه لن يسألك ايضا ماذا فعلت. فلو كان لى ولدان، احدهما حسن السلوك. بيتى ، مقتصد

ويخاف الرب، وكان الآخر متشردا، محتالاً، شريرا صياد نساء ومختالا، فانني ساجمعهما بالتأكيد على طاولتي ولاأستطيع التأكد من ان قلبي لن يكون اكثر قربا للثاني، بالطبع ،لانه يشبهني لكن من قال انني لا اشبه الرب، اكثر من كاهننا الذي ينحني ليل نهار كي يجمع المال؟

الرب يجارينا في الانهماك في الصخب، فهو يقتل ويقترف المظالم، وهو يحب، ويعمل، ويصطاد النساء، انه يفصل نفس ما افعله، انه يأكل مايريد، ويأخذ المرأة التي يريد، فحين ترى امرأة تسير على الارض مثل مياه النبع البارده تحس بقلبك برفص فرحا، وفجأة تجد ان الارض قد انشقت وابتلعتها، اين ذهبت؟ ومن الذي اخذها؟ اذا كانت طاهرة فاننا نقول ان الرب هو الذي اخذها، وان كانت فاسدة نقول ان الشيطان هو الذي اخذها.

لكنني اعتقد ان الرب والشيطان هما شيئ واحد

نحن الآن في صحبة الأب «موسى» في كنيسة سانت كاترين على ارتفاع ثلاثة الاف وستمائة واربعة وستين مترا فوق سطح البحر. على اعلى قمة من قمم سلسلة جبال سيناء.

الشمس تخطف البصر، وفي الاسفل نرى البتراء العربية تتبخر، الى اقصى مكان يمكن ان يصل اليه نظرنا.

الاب «موسى» النحيل، القصير ، الطري العود، هو صاحب السلطة هنا. هو الذي شيد الطريق المؤدية الى قمة الجبل، واقام الاساسات القوية لهذة الكنيسة الصغيرة المقامة في اعلى هذا الشارع الذي نجلس عليه، وهو الآن يعتني ببيت الضيافة الصغير الذي زوده بالاسرة، والفحم، والطعام، والايقونات، والزخارف، والعرق.

كان طعامنا يغلي، وكان هناك طائرا حجل قتلا على الطريق، وهما الآن يشويان على النار، وصديقنا البدوي المحبوب «مزنجي» بنحني فوقهما وينكش جمر النار. كان جسده النحيل والقوي يتحرك برشاقة، مليئا بالحيوية والشباب، اما «باهوميوس» فقد التف ببطانية وانحنى مقتربا من

«كالموهوس» وهو يحدق بشوق زائد الى نخطيطات الجبال التى كان «كالموهوس» يخططها على رقعة من الورق.

اخذت رائحة طيرى الحجل المشويين تعبق فى ارجاء الغرفة، اما نحن فقد استندنا الى الحائط، واخذنا ننتظر، كنا نرتجف من البرد والجوع، وكان هناك فرح عظيم يغمرنا.

احضر الاب «موسى» بعض الحلويات، والشاى، والخمر المصنوع من التمر، واحضر بعد ذلك بعض ثمار الجوز واللوز، والعسل ، واخيراً احضر بعض شراب العنب الذى حفظه بشكل جيد من السنة الماضية.

والاب «موسى» يجد متعة فى خدمة ضيوفه، فهو يظل يطوف حولهم، يأتى ويذهب فى الكنيسة، يحل حبال السارية التى نصبها على اعلى صخره، ورفع فوقها الراية الاغريقية. ثم يأخذ بندقيته ذات الفوهتين، ويطلق النار، ثم شرع فى تريد اغنية.

وقد خطر لى ان الانسان الجيد، يمكنه ان يختار مكان عبادته على بعد العديد من الكيلومترات. فهنا يوجد هذا الراهب النحيل المتواضع الذى بنى بيته على هذه القمة العالية الوعرة، وصنع موقده، واشعل ناره، ورفع رايته. لقد قهر كل القوى الشريرة، وقهر الوقار والحزن، واخذ يضحك ويغنى مثل اى راع، واخذ قلبه يخفق لانه يقوم على خدمة رجلين مجهولين بالنسبة اليه.

قلت:

-«كيف اصبحت راهباً ايها الاب موسى؟»

ضحك الاب «موسى» على نفسه بقوة ، واجاب:

-«كنت اريد ان اصبح راهبا منذ ان بلغت الثانية عشرة من العمر، لكن الشيطان ظل يضع العراقيل امامى، سوف تقول لى ماهى هذه العراقيل، انا سأقول لك. كان عملى يسير على خير مايرام، وكنت اجمع المال، لكن ماذا يعنى جمع المال؟ انه يعنى نسيان الرب

لقد عملت كساعى بريد، وبائع متجول، وصانع احذية وعملت فى مناجم،

«لافريون» واخيرا ذهبت الى سكة حديد «اكونيو»، وفكرت بينى وبين نفسى وقلت: ما ان افقد كل نقودى سأذهب لأصبح راهبا. وقد احبنى الرب، وقطعت الحبل، وغادرت، وما ان انقطع حبل البالون حتى حلق البالون فى السماء. بهذه الطريقة غادرت العالم.

لقد مضى على وجودى هنا عشرون سنة. فما الذى فعلته؟ لقد فعلت مافعلته فى العالم. اننى اعمل، اعمل منذ طلوع الفجر حتى الليل، سوف تقول لى، انك تقوم بنفس العمل، لكننى ساقول لك، لا، ليس تماماً، اننى سعيد هنا، لكن هناك، فى العالم، لم اكن سعيدا.

لكن، ماذا اعمل؟ وكيف اعمل؟ اننى افتح الطرق كل الطرق، التى مررنا بها هى طرقى، اننى افتح الطرق، هذا هو عملى كشماس، لقد ولدت لهذا السبب، واذا ذهبت الى الجنة فسوف اذهب عبر هذه الطرق.

واخذ يضحك ساخرا من آماله:

- «اف، الجنة!، ابهذه الطريقة يدخل الانسان الجنة؟ اما «باهوميوس» البسيط، الذى كان قد تغذى جيدا، ولف نفسه بالبطانية، فقد قال وهو يرتعش، ويتذمر:

- «سوف تدخلها يا «موسى» سوف تدخلها، لا تقلق يا «موسى» وضحك «موسى» وقال:

- «ولماذا تخاف انت؟ ماعليك الا ان تمسك بالفرشاة الصغيرة، وببعض الالوان، ثم ترسم جنة، وتدخلها.

اما بالنسبة لى فان طريقى لانهاية لها. لانه يتوجب على ان اشق طريقا لكل باب من أبواب الجنة، والا فاننى لن ادخلها، لان كل انسان يحاسب باعماله، اما انت واستدار نحو كالموهوس- فسوف ترسم جدارا، وبعض الاشجار وتضيف اليها المياه، وبعض الملائكة، وسف تدخلها انت ايضا مثل باهوميوس، لكن ماذا عنك!

واستدار نحوى بشوق عظيم فاجبت:

- «لقد دخلتها ،فالجنة بالنسبة لى عبارة عن جبل عال، وعلى قمته شارع حجرى، وعلى الشارع ثمار الجوز والعنب والتمر والخمر وانا اجلس مع ثلاثة رجال طيبين، نتحدث عن الجنة»

وهكذا مر اليوم ونحن نتحدث، ونأكل ، ونشرب وننقش اسماءنا على الصخور، واخذ البرد القارس يلسعنا فانتقلنا الى داخل الكنيسة الصغيرة.

اما الصخرة التى سجى عليها الملائكة جسد القديسة كاترين قبل مائتى عام، فقد تضخمت وارتفعت مثل الرغيف واخذت شكل القديسة الراقدة.

كان موسى يحمل شمعه مضاءة، ويرينا آثار رأس، وجذع، واقدام القديسة على الصخرة. لقد وصف لنا حياتها واستشهادها ، بهدوء ومتعة وبساطة كما لو كان يتحدث عن الارض: كيف تمطر، كيف ينمو المحصول، وكيف يجنى.

ودخلنا الى قبو الراهب، واشعلنا الجمرة، اما صوت الرعد المرعب فقد كان يسمع من مسافة بعيدة جداً.

وفجأة وباحساس عميق، وبفعل هذا النقاء الطاهر، استدار «كالموهوس» نحو «موسى» وقال:

- «ايها الاب موسى، سوف ارسم ايقونة للقديسة كاترين واقدمها هدية لك»

وضحك موسى بخبث

- «لماذا تضحك؟»

- «لانني مندهش، لاننى سمعت ان كل من يريد ان يرسم ايقونة، فعليه اولاً ان يغسل يديه بالكامل وعليه ان يتوقف عن اكل اللحم. هل تفهمنى؟، وعليك ان تتوقف ايضا عن التدخين. حينها فقط سوف تصبح الايقونه معجزة وتصبح شيئا جماليا».

بدأ النقاش يسخن، وشنف «باهوميوس» اذنيه، واخذ يستمع.

فحين كان «باهوميوس» شابا، وكان فى بداية عمله الفنى، امسك بفنان ناضج، ابيض اللحية ،كى يتلقى العلم على يديه:

-«يجب على الفنان ان يحمل فى مخيلته ، وبشكل مستمر حياة القديس الذى يريد ان يرسمه. دون ان يفكر فى أى شيئ آخر، فى الليل، وفى النهار، ولا يتوجب عليه ان يمسك فرشاته ليرسم، الا بعد ان يرى ذلك القديس فى الحلم»

وقفز «موسى» مشارا بدافع غريب عميق وقال:

-«الآن سوف اخبركم بشيئ لم ابح به لاحد حتى هذه اللحظة. لقد قلنا ان مهمتى هى شق الطرق. اننى اعذب نفسى وأقلقها طوال النهار وأفكر.. باى اتجاه يتوجب على ان اشق الطريق؟ الى اليمين ام الى اليسار؟ واين يتوجب على ان ابنى جسرا، وفى اى مكان يتوجب على ان أقيم مصرفا للمياه؟ اننى اتعذب واشقى فى هذه المتاهة، وفى الليل،أرى فى الحلم المكان الذى يجب أن أشق فيه الطريق ولهذا السبب فان كل طرقى سليمه وراسخة.

فى هذا الوقت كان الليل قد انتصف، ووصل «فرنجى» وهو مثقل بالبطانيات الثقيلة التى قام بفردها فوقنا، فاستغرقنا فى النوم. مع الفجر ،بدأ برد كبير بالتساقط،فتحنا الباب الضيق، وحدقنا فى هذا الضباب الشديد الذى لايستطيع الانسان ان يرى شيئا من خلاله كان البرد قارسا، وكان الثلج قد غمر الجبل بشكل كامل.

قال «موسى» مصدرا اوامره وهو يغلق الباب:

-« ضع الغلاية على النار كى نغلى الشاى».

وجاءت مجمرة النار من الخارج،. واخذنا نحضر الشاى. وبدأنا ننشد بعض المزامير، فتسامت ارواحنا، وسرت الحرارة الى دمائنا، وقررنا ان نصنع خروجنا وصرخ «باهوميوس» وهو يرتعد من البرد والخوف:

- ياصدقائى الطيبين، ارسموا شارة الصليب وصلوا».

ورد عليه «كالموهوس» بحسم لاخافته:

-«لاخوف هناك من البرد، وانما الخوف من هذه الحيوانات المتوحشة الجائعة التى تطوف بالمكان فى مثل هذا الجو، خاصة الدببة!»

رسم «باهوميوس« اشارة الصليب حول نفسه، ثم ذهب الى الداخل ليقدم احترامه للقديسة كاترين، والتقط بطانية ولفها حول نفسه ثم تبع الركب.

كان الثلج فى مستوى ركبنا، وكان البرد يتساقط على قبعاتنا وكنا نضحك ونتقافز كان «موسى» يسير فى المقدمة، وكنا نتبع الممر الذي يفتحه لنا ببسطاره المرتفع الكبير

وحين عدنا الى الدير، كان الفرح يملأ قلوبنا، وكنا نغالب الصّبر، كما لو اننا نعود ثانية الى بيت أبينا.

فى الليل، كنت اجلس وحيدا فى حجرتى، وكنت اقلب صفحات العهد القديم، وانا مازال اخفى رؤية الصحراء بعمق فى ذاكرتى. وقد بدا لى الكتاب المقدس وكأنه سلسلة من الجبال ذات القمم الكثيرة، التى تنطلق منها صرخات الانبياء الذين ينزلون فوقها وهم مربوطون بالحبال. اما الهيجان فانه يعصف بقلب الانسان الذى يقاوم ويناضل ويدور بين يدى الرب.

وفجأة امسكت برقعة من الورق، وبدأت اكتب هذه الكلمات التى ستفرج عن قلبى.

«صامويل»

النبى القديم الذى يرتدى نطاقا من الجلد، وخرقة مبقعة كان ينظر نحو المدينة فى الاسفل، دون ان يسمع صرخة الرب. كانت الشمس مثل المهماز فوق الافق، وفى السماء، وفى الاسفل كان غليغال الفاسق يئن، وينغرس كالاسفين بين صخور الكرمل الحمرا، باشجار نخيلها التى تشبه السيوف، وتبينها الشوكى الناضج.

وصرخ صوت الرب ثانية:

-صامويل، صامويل ايها العبد المؤمن، لقد كبرت ألا تستطيع ان تسمعنى؟

ارتعد صامويل، واتحدت حواجبه الكثيفة بالخرقة التى كان يرتديها، اما الحية الطويلة فقد اقشعرت، ورددت اذناه الصدى مثل صدفتين بحريتين

وهدرت اللعنة فى احشائه مثل هرير بحر مطلق.

وهمهم:

- «اللعنة»

ومد هيكل ذراعيه فوق مدينته الضاحكة المنشدة، التى كانت تطن مثل عش الدبابير

- «اللعنة على هؤلاء الذين يضحكون، وعلى هذه القرابين الجامحة الخارجة على القانون التى تضبب وجه السماء. اللعنة على المرأة التى تدوس الحصى بقبقابها!

ايها الرب، ايها الرب، هل اختفت صواعق الرعد من يدك البرونزية؟ لقد نفثت امراضك السماوية فوق جسد ملكنا المقدس، فسقط على الارض مزبدا مثل الحلزون، ومنتفخا مثل سلحفاة. لماذا؟ لماذا؟ ماالذى فعله لك؟ انني اسألك. اجب احرر كل الناس من هذا الحزن القاتل، وبعد ذلك، وانتزع المنى من صلب الرجال واسحقه على هذه الصخور.

وارعد الرب للمرة الثالثة

«صامويل، صامويل» ابق كما انت، واسمع صوتى!»

اخذ جسد النبى يرتعش، فانحنى فوق الصخرة الغارقة بالدم، حيث كانت تنحر قرابين الرب، وسمع صرخات الرب الثلاث فى وقت واحد، ورفع يديه عاليا وصرخ:

- «ايها الرب انا هنا!»

- «صامويل، املأ قرنك بالزيت النبوى واذهب الى بيت لحم»

- «انها بعيدة، وساقاى واهنتان، لقد ضربنا الارض فى خدمتك لمدة مئة عام، ايها الرب، حمل هذا الامر رجلا غيرى، انا لم اعد قادرا عليه»

- «انا لا اتحدث مع الجسد الذى احتقره ولن أمسه، اننى اتحدث مع صامويل!»

- «تحدث ايها الرب، ها انا بين يديك!»

- «صامويل املأ قرنك بالزيت النبوى واذهب الى بيت لحم، اغلق فمك ولاتفتحه ابداً لاتجعل احداً يرافقك. ثم أطرق باب جيسى»

- «انا لم اذهب الى بيت لحم من قبل ابداً، فكيف لى ان اعرف باب جيسى؟»

- «لقد وضعت عليه علامة ببصمة إصبعى، اطرق باب جيسى، ومن بين ابنائه السبعة اختر واحداً.»

- «اى واحد منهم ايها الرب، ان عينى غائتمان، ولا استطيع ان ارى جيدا»

- «ما ان تقابله حتى يجأر قلبك بصوت كصوت العجل، هذا هو الفتى الذى يجب ان تختاره، اخرق شعره، واعثر على قمة رأسه وادهنها بزيت الملك ليصبح ملكاً على اليهود، لقد قلت كلمتى!»

- «لكن شاؤول سوف يكتشف أمرى وسوف يكمن لى فى طريق العودة وسوف يقتلنى

- «وماذا افعل انا، وماذا تفعل عناينى، انا لا اقدر حياة من يخدموننى بثمن،اذهب!»

- لن اذهب»

- «امسح العرق عن وجهك،وصحح فكيك حتى لاترتعشا وانت تتحدث، وتحدث الى الرب، انك تتأتئ ياصامويل، تحدث بوضوح»

- «انا لا اتأتئ. انا اقول اننى لن اذهب!»

- «تحدث بلطف اكثر، انك تصرخ كأنك خائف،لماذا لاتريد ان تذهب؟ دع صامويل يتلطف ويتحدث، هل انت خائف؟»

- «انا لست خائفا ان حبيبى لن يدعنى اذهب، لقد مسحت رأس شاؤول بزيت الملك وعينته ملكا، لقد احببته اكثر مما احببت ولدى، ونفخت بروحى بين شفتيه الشاحبتين، روح النبوة، روحى، وقد القت عليه هذه الروح هالة المجد، انه جسدى وروحى، ولن اخدعه!»

-«ولماذا هذا السكوت المريع، هل خوى قلب صامويل؟»

-«انت قادر على كل شيئ ايها الرب، لاتلعب معى مثل هذه اللعبة. اقتلنى، فانت لاتستطيع ان تفعل اكثر من ذلك اقتلنى!

وامتلأت عينا صامويل بالدم، وظل معلقا على الصخرة ينتظر

- «اقتلنى»

واخذ قلبه يزأر داخله

- «أقتلنى»

-صامويل

قالها الرب بصوت اكثر رقة، وكأنه يريد ان يتوسل اليه ويستعطفه، لكن النبى العجوز ظل يغلى ويتقد

-«إقتلنى، انك لاتستطيع ان تفعل اكثر من ذلك، اقتلنى!»

لم يجب احد، ومرت الظهيرة، وغابت الشمس، وظهر فتى داكن البشرة حافى القدمين، وتسلق ممر المشاة وتقدم من النبى وهو مرعوب وكأنه يقترب من حافة الجرف الصخرى، ووضع وجبة النبى المكونة من التمر، والعسل، والخبز واناء ماء صغير، على حافة الصخرة، وولى هاربا وهو يكتم انفاسه، وشق طريقه نازلا المنحدر الصخرى نحو المدينة واختفى فى حجرة والده. فانحنت امه عليه وقبلته.

-«الم يزل هناك؟»

سألته بصوت مرتعش وكررت السؤال:

-«الم يزل هناك؟»

اجاب الفتى

-«مايزال هناك، مايزال يتعارك مع الرب»

وغابت الشمس خلف الجبال، وظهرت نجمة المساء، وحوّمت مثل جمرة من نار فوق المدينة الآثمة، وقد رأت المرأة الشاحبة هذه النجمة من خلف نافذتها فاطلقت صرخة قوية:

-«سوف تسقط الآن وتحرق العالم!»

وانتشرت النجوم فوق شعر النبى الطويل، واخذت تتحرك وتتلألأ، وتدور بانتظام حول اطار دائرى غير مرئى. وكان النبى يقف وسط هذه النجوم يرتعش، بينما كانت هذه النجوم تمر عبر شعر رأسه، وتضرب خدمة كأنها حبات بردَ عملاقة.

«ايها الرب، ايها الرب»

همس بهذه الكلمات مع مطلع الفجر، ولم يستطع أن ينبس بكلمة اخرى غيرها.

ثم اخذ القرن، وملأه بالزيت النبوى، وامسك بعكازته كثيرة العقد، ونزل المنحدر. فتحولت ساقاه الى جناحين، ولمعت حبات الندى مثل النجوم على لحيته البيضاء، وكان هناك طفلان يلعبان على عتبة البيت الاول، عندما رأيا ثياب النبى الملونة وعمامته الخضراء، وهما تطيران، فاخذا بالصراخ:

-«لقد أتى.. لقد اتى!!»

واقعت الكلاب فى الزوايا وهى تضع ذيولها بين اقدامها، وخارت بقرة وهى تمرغ رأسها على الارض، وانطلقت عاصفة شديدة لتعبر المدينة من اقصاها الى اقصاها، فانصكت الابواب، وصرخت الالهات واخذن بجمعهن اطفالهن من الشوارع. واخذ صامويل يضرب الحجارة بعصاه، ويخطو خطوات واسعة وغمغم قائلا:

-«احس كأننى حرب على هؤلاء الناس. مثل كارثة، مثل الرب!»

وظهر راعيان وهما يحملان عصاتين طويلتين، على الممر الضيق، وما ان شاهدا النبى حتى خرا على الارض.

-«ايها الرب، مرنى ان اسحق جمجمتيهما، ايها الرب تحدث الى قلبى اننى على أهبة الاستعداد»

لكن لم يتحرك اى صوت فى ذاكرته، فعبر بعنف وهو يلعن بذرة الانسان. لفحته الشمس، وثارت دوامة من الغبار حول قدميه، وغلفته مثل غيمة،

وشعر بالظمأ الشديد فصرخ:
-«ايها الرب، اعطنى ماء»
فأجابه صوت يشبه صوت خرير الماء بجانبه
=«اشرب»
استدار فرأى الماء يقطر من صدع فى احدى الصخور، ويصب فى احدى القنوات، فانحنى بعد فرق لحيته، ووضع فمه على الماء، فتسربت تلك البرودة المنعشة الى اخمص قدميه، فاصدرت عظامه النخرة صريرا خاصا
وعاد ثانية الى الطريق، وغابت الشمس فاستقلى تحت جذع شجرة نخيل ووضع يده اليمنى تحت خده ونام، وتجمع ابناء آوى حوله وما ان تعرفت هذه الثعالب على رائحته حتى ولت هاربة، وضعت النجوم نفسها فوقه على شكل سيوف، وافاق عند الفجر، وتابع مسيرته. فى اليوم الثالث انفتح الجبل، اصبح السهل مرئيا، ولاح نهر الاردن وسطه مثل افعى متخمة كسولة ذات جلد اخضر. ومرت ايام ثلاثة اخرى. وفجأة، لاحت بيوت بيت لحم البيضاء البراقة من خلف اشجار النخيل.
ومررف حمام فوق رأس النبى، حوم للحظات، ثم فر هاربا تجاه بيت لحم يملؤه الخوف.
وعلى المدخل الشمالى الكبير الذى كانت تفوح منه رائحة القطيع، ويعج بالمتسولين العميان والمجذومين، وقف الكبار ينتظرون النبى، يرتجفون ويهمهمون لبعضهم البعض:
-«سوف ينزل الجذام على القرية! الرب لاينزل على الارض الا لكى يسحق مخلوقاته»
واستجمع اكبر رجل فى المجموعة شجاعته، وخطا خطوة إلى الامام وقال:
-«سوف اتحدث معه»
وصل النبى تلفه غيمة من الغبار، وخرقه تتطاير مثل راية حرب ممزقة بالية.

-« ماالذى احضرته لنا السلام ام القتل؟ »

-« السلام »

هكذا اجاب النبى وهو يمد ذراعية ،واضاف:

-« اذهبوا الى بيوتكم، افرغوا الشوارع، اريد ان أمر بمفردى »

اخليت الشوارع، واغلقت الابواب، واندفع صامويل بقوة عبر القرية، وهو يحدق عن قرب فى الابواب، ويمرر اصابعة فوقها، وعند آخر بيت واقع على طرف المدينة استطاع ان يتبين بصمة اصبع بالدم على الباب. دق على الباب، فاهتز البيت كله لهول الصدمة، ووقف « جيسى » العجوز على قدميه وهو مرعوب، وفتح الباب.

-« يبرو- جيسى، السلام والامان لبيتك، والصحة لاولادك السبعة، وربما ستحل البركة على زوجات ابنائك، وابنائهن الذكور، فالرب معك! »

-«ارجو ان استطيع تحقيق مشيئته» قالها «جيس» وفكه الاسفل يترجف.

وظهر رجل وملأ مدخل الباب بجسمه، واستدار «صامويل ليراه وقد شعت عيناه بالبهجة. كان الرجل مارداً، ذو شعر اجعد اسود ، وصدر عريض ملئ بالشعر، وساقين قويتين مثل الاعمدة البرونزية.

قال « جيسى » بفخر:

-« هذا هو الياب» ولدى البكر»

كان صامويل فى ذلك الوقت صامتا ينتظر صوت قلبه، فقال فى نفسه:

-« ربما يكون هذا هو الولد المطلوب، بل هو بالتأكيد! ايها الرب. لم لاتتكلم؟ »

وانتظر لفترة طويلة، وفجأة انطلق صوت مرعب من داخله:

-« لماذا تهمهم؟ هل انجذبت روحك له؟ انا لا اريده! اننى ابحث عن القلب، واحتقر المنى ، اننى ازن «النُقى» مخ العظام- فى العظام، انا لا اريده! »

قال صامويل آمراً ، وقد شحبت شفتاه:

-«احضر ولدك الثانى! »

وجاء الطفل الثانى لكن قلب النبى ظل صامتا ، ولم تتحرك احشاؤه.

-«انه ليس الولد المطلوب ، انه ليس الولد المطلوب، انه ليس الولد المطلوب! »

هكذا ظل يهمهم وهو يدفع جانبا كل ولد من الاولاد الستة، واحدا بعد الآخر، وهو يحدق فى جباههم، وحواجبهم، وشفاههم ويتفحصها بعينيه، ويجس اكتافهم وركبهم، وخصورهم، واسنانهم كانهم اكباش اوخراف

وحين انهك من التعب، وقع كالكومة على عتبة البيت وهو يصرخ بغضب

-«ايها الرب، لقد خدعتنى، انت دائما ماكر، وعديم الرحمة، وليست لديك اية رأفة او شفعة بالنسبة للانسان، تعال انا صوميل، صامويل يدعوك ،يتحدث معك،لماذا لاتتكلم؟

واقترب «جيسى» وهو يرتجف بشدة ،وقال:

-«لم يبقى سوى ولدى الصغير، ديفيد،انه يرعى الغنم»

-«ارسل من يحضره! »

قال‌الاب:

=«الياب ، واذهب وناد على اخيك.

قطب «الباب» حاجبيه، فامتلأ الرجل العجوز رعبا ، وقال لولده الثانى:

-«ابيناداب» اذهب وناد على اخيك

لكنه رفض هو الاخر، وكذلك رفض بقية الاولاد ؛ نهض «صامويل» عن العتبة وقال:

-«افتح الباب، ساذهب انا بنفسى.

قال الرجل العجوز متسائلا:

-«هل اصف لك علامات ولادته الموجودة على جسده كى تستطيع التعرف عليه؟:

-«لا ، اننى اعرفه قبل ان يعرفه ابوه، وقبل ان تعرفه امه»

وانطلق مندفعاً بقوة يصعد الجبل، وهو يشتم ريتعثر بالصخور، ويصرخ وهو يندفع كالعاصفة:

-«لا اريد ان.. لا اريد ان..»

وحين وصل صامويل الى شاب يقف بين قطيعه، برأسه الخمرى البراق الذى يلمع مثل الشمس المشرقة. وقف للحظات، وجأر قلبه مثل خوار العجل، وصاح آمراً:

-«ديفيد، تعال هنا»

اجاب ديفيد:

-«تعال انت الى هان، لن اترك قطيعى»

-«انه هو، انه هو»،

زأر صامويل وهو يضغط على جبهته بسخط وغضب، واقترب منه، وامسكه من كتفيه، وتفحص ظهره، وتفحص ساقيه، ثم عاد الى رأسه.

صاح به الشاب آمراً، وهو ينتزع رأسه من بين يديه:

-«من انت؟ من انت لتفتشنى؟»

-«انا صامويل، خادم الرب، انه يأمرنى ان اذهب فأذهب، ويأمرنى ان اصرخ فأصرخ، انا قدمه، فمه، يده، وظله على الارض. إنحن!»

وانحنى الشاب، فعثر صامويل على قمة رأسه، ثم سكب الزيت فوقها. وقال:

-«انا احتقرك، انا لا اريدك، انا احب انساناً آخر غيرك، لكن ريح الرب مرت فوقى، وهى كما ترى. جعلتنى على غير ارادتى ارفع يدى، وأصب زيت النبوة على قمة رأسك»

ثم اخذ يصرخ:

-«ديفيد هو ملك اليهود المكرس، ديفيد هو ملك اليهود المكرس، ديفيد هو ملك اليهود المكرس»

ثم قذف بالقرن المقدس الى الصخر فتفتت.

-«هكذا فرقت قلبى ايها الرب، وانا لا اريد ان احيا بعد ذلك!».

واندفعت سبعة غربان من اعماق السماوات، معه وحوّمت حوله، وانتظرت. فحل النبى عمامته الخضراء عن رأسه، وفرشها على الارض كالكفن، واقتربت الغربان بجرأة، فغطى وجهه بالخرقة المبقعة، ولم يتحرك.

لقد كان العم. «اندرياس» رجلاً فريداً من نوعه فى قريته الكريتية. وفى احد الايام. قدم لى العمر «اندرياس» تعريفاً مخدداً للرب:

-«الرب هو رجل يسافر حول العالم، وبعد ذلك يمسك مسدساً ويقتل نفسه»

لقد جربت بمرارة اكبر، اكبر من اى وقت فى حياتى رعب امتلاك الرغبة فى معرفة الاراضى الاخرى، والناس الاخرين، وفى نفس الوقت مرارة اجبارك على الرجوع ثانية وترك كل ذلك خلفك. والانسان بحاجة الى قوة عظيمة، وترويضاً وانضباطاً فوق طاقة البشر من أجل تحمل هذه اللحظات. فالقلب لم يكن يريد ان يغادر، لقد استعبدته هذه التفاصيل الانسانية الحميمة، انه يمسك بخناق الناس والاشياء ويصرخ.

كان قلبى يصرخ هذا الصباح وانا اقول وداعاً للدير

كان يصرخ ويقول:

-«لاتفعل ذلك ابداً بعد اليوم!»

كان غراب ادغارآلن بو الاسود يحط على كتفى الايسر ويتشبث به باحكام، ويصرخ. لقد قلت وداعاً لهذه الايقونات الرائعة، ولاشجار السرو التى تتسامى فى عزلتها فوق تلك الصخور البعيدة، وللبساتين المزهرة، وللساحة، ولكل شيء طيب، ثم قلت وداعاً للناس.

وهمهمت بمقطوعة شعرية لهوميروس:

-«اخفق بسرعة ايها القلب العجوز

لقد عرفت الالم القاس»

نزلت الدرجات، وعبرت الساحة يرافقنى الاسقف، ورئيس الدير، وحافظ

غرفة المقدسات، وظهر «باهوميوس» وهو ملتف ببطانيته.

سأل الاسقف:

-«هل انت بردان يا «باهو ميوس»؟ فاجاب:

-«اجل انا بردان ايها المبجل!»

وحين تقدم لوداعى، فتح بطانيته، واعطانى رغيفين صغرين ساخنين، موسومين، بختم «سانت كاترين».

-«لقد ارسل ارون هذين الرغيفين لك زوادة للسفر»

كان «طعمة» يقف بانتظارى مع جملة خارج الدير، قلت وداعاً لهؤلاء الآباء الرائعين، فلن أنسى مشاعرهم الحميمة، نبلهم، وضيافتهم. وقبلت يد «كالموهوس» فقد أرادان يظل فى سيناء للعمل هناك لفترة اطول، فقد سلبت هذه الطبيعة السامية للكتاب المقدس لبه، وسرقت عقلة وقلبه.

فانفصلنا وقال:

-«ليكن الرب معك»

وبدأت رحلة العودة، ولاحت الوان الصحراء النسماوية، وفتحت الجبال ابوابها ودخلنا، كان «طعمة» يغنى برقة كأنه يهدهد طفلاً صغيراً، ويوقّع على ايقاع الجمل البطىء، اما انا فقد كنت استمتع بهذا السكون، دون ان اتعجل مغادرة هذه الصحراء الرائقة والثرية.

وفاجأنا الليل ونحن نقترب من احدى اشجار النخيل، فجمعنا الخشب، واشعلنا النار، وغلينا الشاى، وسلقنا الارز واكلنا. ثم اشعلنا غلايينا، واخذ وجه طمعه يلمع مع كل اضاءة للغليون، كان الوجه نحيفاً وداكناً، وكانت عيناه البديتان الصغيرتان تلمعان مثل عينى الافعى.

حدقنا فى بعضنا البعض للحظات وضحكنا. لكننا كنا منهكين من التعب، فاستلقينا قرب بعضنا البعض، واستغرقنا فى النوم.

انطلقنا عند الفجر، وكانت الايام والليالى تمر بنفس الايقاع السماوى، كانت الجبال تبدو أكثر صرامة وقسوة، وكانت المناطق الشريطية الخضراء محاصرة

بالجرانيت الاحمر، واخذت الاودية تضيق. وفي احد الشعاب لمحنا ماء يسيل عبر غابة صغيرة من الاشجار، وحول الماء اشجار نخيل ومسك، وكان هناك قطيع من الاغنام يصطف فوق الصخور، وحين مررنا بالراعية، وهي فتاة بدوية صغيرة، قامت الراعية بتغطية وجهها بيديها النحيلتين، لكننا استطعنا أن نرى من خلال اصابعها، عينين رائعتين مثل عيني الحيوان تومضان وتتحركان.

وعند ظهيرة اليوم الاخير، خرجنا من الجبال.

وامتد اللون الوردي الاملس الناعم امام عيوننا كان يبدو مثل بحر يمتد امام عيوننا لمسافة عظيمة.

وواصلنا السير، لكن هذا اللون الوردي المترامي الذي كان يمتد امامنا لم يكن بحراً، بل صحراء، فقد كانت الرياح العاتية تهب على داخل هذه الغيوم القرمزية الملتهبة.

حبسنا انفاسنا ونحن ندخل العاصفة الرملية، وتوقف غناء «طعمة» فقد لف برنسة الابيض حول نفسه واندفع للأمام.

وقد اندفع الرمل الى الاعلى بقوة، واخذ يضرب وجوهنا وايدينا بلسعات قوية. واخذ الجمل يدور حول نفسه غير قادر على حفظ توازنه. وقد استمرت رحلة العذاب هذه ست ساعات، لكنني كنت في سري سعيداً بدخول تجربة هذه الظاهرة الصحراوية المقيتة.

وفجأة ظهر امامنا على بعد خطوة واحدة فقط، بيوت «ريشو»، الاطفال الذين يجلسون على الاعتاب، الدخان المتصاعد من اسطح المنازل. وبعد ذلك الباب العظيم لملحقية الدير، والارشمندريت ثيودوسيوس، الكيميائي العظيم الذي استطاع بقلبه الانسان، ويحبه ان يحوّل هذه الصحراء.

لقدعشت خمسة من اروع ايام حياتي في ميناء «ريشو» الصغير على سفينة راسية، اغطس في الماء، واتمدد على الرمل واتجول تحت اشجار النخيل. ووقت الاصيل كنت اجلس تحت شجرة نخيل الجيلية مقدسة، واراقب الالوان

المتلألئة لجبال الصحراء التى تمتد الى ابعد مايمكن ان تراه العين. جبال جبال قرمزية، مرمرية، لازوردية.

وقد باغتتنى اثارة غريبة عميقة وانا اسير على طول هذه الشواطىء الصحراوية العربية، ذكريات قديمة، تعود الى ما قبل تاريخ ولادتى. كانت تهيج بصمت على اعتاب ذاكرتى، مثل الظلال فى «الحادس»- مثوى الاموات فى المثيولوجيا الاغريقية.

فمن حين لآخر، كنت اجد نفسى مدفوعاً بفعل الذاكرة السلفية داخلى الى التذكر، والقاء الضوء على وجودى الخاص. وكنت اعتقد اننى استطيع استشراف الماضى، فكل اجدادى ولدوا فى قرية كريتية من اصل بربرى، وحين حرر «نيسيفوروس فوكاس» الجزيرة من العرب، كدس العرب غير النصارى فى بعض القرى، ومن هنا جاء الاسم «باريباروى» الذى اطلق على هذه القرية.

وانا احب ان اتخيل ان دمى ليس اغريقيا نقياً، وانما انا انحدر من اصل بدوى، فقد حدث ان تبع احد اجدادى القدماء الهلال وراية النبى الخضراء، وقفز الى سفينة شراعية عربية انطلقت من اسبانيا لتحتل جزيرة كريت. الجزيرة التى تفيض لبناً وعسلاً، وحين قفز الى الشاطىء جر سفينته معه الى الشاطىء الرملى، ثم احرقها، حتى لايكون له اى اصل بالتراجع والانسحاب، وهكذا فقد قاتل قتال اليائس، ودفع قوى اليأس فى داخله. كى تكسب المعركة.

وانا اسير على هذا الشاطىء العربى. حاولت أن افك رموز الصرخات المبهمة داخلى، واناأاتبين ملامح وجه اسلافى.

ومرّ الوقت، واخذت السماء تعلق قناديل نجومها العملاقة، حتى هذا الوقت كان الارشمندريت «ثيودوسيوس» مشغولاً على، فقد ارسل بعض البدو للعثور على، وتتبع آثار اقدامى على الرمال.

تناولنا العشاء جميعاً على مائدة صغيرة مليئة بالخيرات بصحبة الارشمَندريت. «ثيودوسيوس» وتحدثنا، وطرحنا العديد من الاسئلة التى

تولدت داخله هنا في الصحراء، وقد صاغ هذه الاسئلة بوضوح ودقة. وتحدثت اليه عن المدن المظلمة وعن آلام الانسان المعاصر، عن العمال والمواطنين، وعن روسيا.

ثم انفجر داخلي هاجس شيطاني، الافعى التي تتلوى على شجرة المعرفة وتطلق هسيسها. لكن «ثيودوسيوس» كان ينصت الى باهتمام شديد.

قلت له:

-«اذا خرجت من حجرتك الهادئة ايها الاب ثيودوسيوس، والتفتت الى هذا العالم، فان قلبك الدافيء المحب هذا الذي يحب الجنس البشرى سوف يرتعد من الالم. وستجد ان هناك اشياء جديدة لم تكن موجودة، قبل الحرب، تحاصرك، رعب دينى مظلم جديد.

فالشعوب بعد الحرب في حالة هياج، ورياح الدمار تهب على الارض. لقد هبت العاصفة، وهى قادمة الينا، وسوف تجرف في طريقها العديد من ملامحنا المحبوبة، والعديد من الافكار القديمة، ولن يكون هناك اى خلاص»

-«لن يكون هناك اى خلاص؟»

هكذا كرر الراهب الجملة من بعدى، وهو ينظر الى بألم

-«هناك خلاص واحد فقط. الخلاص الذى نعرفه، ونعد انفسنا له.

هكذا اقلقت قلب هذا الناسك الرائع، وحولت هدوءه وصفاءه الى قلق مزعج، وبهذه الطريقة رددت اليه فضل ضيافته، لكن بطريقة اخرى.

رسالة

عزيزتي مونتينا

لقد انتهى الحلم، فقد اصبحت اشجار النخيل، اديرة الرهبان، البدو، والصحراء، كل هذه الاشياء اصبحت خلفي.

ان وصولي الى هذه القارة المظلمة، كان يشبه عودتي الى الوطن. كان هناك هياج خفي غامض، وذكرى ضبابية يغمرانني وانا اتنفس الهواء اللاذع، واطأ هذه الرمال الرمادية الجشعة.

والآن وانا استرجع هذه الرحلة، اجد ان هناك ثلاثة انطباعات قد اثرت في بشكل عميق أكثر من غيرها، وهذه الانطباعات هي:

أ-الحدود بين ارض النيل الخضراء والصحراء.

ب-مدافن وادي الملوك في طيبة

ج-صحراء سيناء.

الحدود، آخر ورقة خضراء تقف منتصبة والصحراء كلها امامها، ومع ذلك تقاوم ولاتستسلم. انها تجمع آخر قطرة من الندى، وتفتت آخر قطعه من الارض وتطلع نحيلة، فاقدة للامل، وغير مثمرة، وهذه الورقة الخضراء، اعطت لقلبي المثال للشيء الافضل في الانسان.

لقد تذكرت حصن «بومبييي» الروماني، كان حصن «بومبييي» كله يحترق، وكانت الحمم تنهمر عليه وتغطيه، وكان الرجال والنساء يركضون حوله في نوبة جنونية، كانوا يمسكون بجواهرهم واطفالهم بقوة، ويندفعون باهتياج للهرب من المدينة.

الرجل الوحيد الذي ظل واقفاً منتصب القامة هو الحارس (الديدبان). كان يقف في المكان الذي عين له. كان يقف على ابعد بوابات المدينة، لايتحرك، بل يرفع رداءه الذي يلبسه على كتفيه بهدوء، ليحمي نفسه من الدخان الخانق. وهذا هو الوضع الذي وجد عليه بعد ثمانية عشر قرناً، لقد كان يقف منتصب القامة يعتمر خوذته، ويمسك بحربته، وفمه مطبق.

لقد كانت الورقة الخضراء على تخوم الصحراء تنتصب امامي تماما كما

ينتصب هذا الحارس، مما جعلنى أومن وانا ارتعد ان هذا هو واجبنا، وان هذا هو مكان الانسان المعاصر.

فى وادى الملوك، اصبت بالرعب، من مشهد جهد الانسان الذى يذهب سدى لهزيمة الموت وقهره، ان الورقة الخضراء لاتريد ان تموت.

فى الظلمة فى تلك الغرف الخفية تحت ارض الجبل الاصفر، كانت موميا ءات الموتى تستلقى مثل شرنقة دودة الفراشة وتنتظر وصول الربيع كى يكون بامكانها امتلاك جناحيها. كل هذه الضجة لمواكب الحياة اندفعت امامى من خلال الرسومات الخضراء والحمراء، والصفراء على الجدران ذات الاضاءة الشحيحة المحيطة بالجثة اما الجثة -سواء اكانت لملك ام لكادح،- تستلقى وسط تلك الظلال الملونة المحببة، وهو نفسه مجرد ظل، يأكل الظل، يشرب الظل، يزرع حقول الظلال يقطع نهر الظل، وينام مع زوجته، ويلعب...

هذا ماكنت احس به وانا اتجول فى وادى الملوك يامونتيتا، وهكذا كنت ارى الارض ايضا، تماما كما هو الحال فى هذا الوادى. نحن ظلال، ونتوارث الظلال، نتجمع معاً لفترة وجيزة على الارض، ثم نتحلل ونزول ونختفى، لاجل من اذن نمثل ادوار الحرب والحب على هذه الارض، ونذهب عبر ادوات البشر الذين يأكلون، يعملون، يحبون فكرة ما، يصرخون ويعانقون بعضهم البعض.

وبدلاً من ايجاد اجابة على هذا السؤال، فان افواهنا مليئة بالقذارة، ماهو واجبنا ؟ واجبنا هو ان نقوم بنفس العملية الدونكشوتيه اليائسه للورقة الخضراء!!

وانا اتجول عبر الصحراء، عند طرف سيناء، شعرت قلبى ينبض بشكل متناغم، ينبض بعناد كما يدق قاطع الحجارة على الحجر. وهذه هى الطريقة التى سارت من خلالها هذه القلوب عبر هذه البرية منذ ثلاثين قرناً. هكذا دقت ونقشت الله فى الجرانيت. شعب فى قبضة الجوع، والخوف والعصيان، شعب ببطون نهمة شرهة، جلد يرتعد، وقلب يقاوم ويخلق «يهوه» الاله الذى يشبههم.

لقد وجدنا انفسنا فى جزيرة، كل هذا الذى خلقناه بادراكنا ووعينا، والذى نفكر فيه ملياً بعقولنا هو جزيرة صغيرة صنعت بالعقل والجسد البشرى داخل هذا المحيط المطلق الفاصل والمظلم، ليس مهماً من اين نبدأ. لاننا دائما نجد الهاوية فى النهاية. ونحن نبكى، نصرخ، نلعن، نعود للوراء، ونبدأ ثانية عبر طريق جديد. وتقول لانفسنا، اخيراً هذا هو الطريق الذى لانهاية له. لكننا نجد دائما الهاوية فى النهاية.

ماهو واجبنا ؟

ان نقف امام الهاوية بكبرياء، يجب الانبكى ونصرخ، والانضحك كى نخفى خوفنا، ويجب الانظلل عيوننا يجب ان نقف بهدوء وصمت. ويجب ان نتعلم كيف ننظر الى الهاوية بلا امل او خوف.

هذه هى صرخة الصحراء الشديدة الخطورة، إنه الوجه المعاصر العميق الغور، انه ليس الوجه الرقيق الحلو للمسيح الذى ازهر فى مراعى الجليل. ولاهو وجه «يهوه» القبلى القاسى الملامح الذى ظهر فى قفار سيناء.

لقد ولدت نزاعات جديدة، واتسعت روح الانسان من خلال البصيرة والالم، الملايين من الكائنات البشرية تعانى من الجوع والضلال. ومن خلال عذابهم ينطلق اتجاه جديد للحياة يأخذ شكلاً ما، كما هو الحال دائما. استجابة جديدة، وجه جديد لاتدرك اغواره. هذا الوجه اذا مانجح فى تعزية واسر الانسان، يجب ان يكون شبيها بوجهه، يجب ان يكون مثل وجه الكادح الجائع، الذى يعمل، ويثور مع الثورة، هذا الوجه يجب الايكون قائدا لقبيلة، بل لكل ابناء الجنس البشرى.

ان «الخروج» من ارض العبودية قد بدأ، اننا نعبر الصحراء، ونحن نعانى، ونتذمر، ويقتل كل منا الآخر ونخلق هذا الوجه الذى لاندرك اغواره، خارج اطار كل الآلهة، لكن صحراء اليوم لاتشبه صحراء سيناء، انها اكثر فظاظة وقسوة، مليئة بالالات، والمدن والناس.

هنا فى مصر شعرت برعدة وانا اتابع هذا «الخروج» الذى أخذ يستيقظ.

ويمضى كما يمضى الوجه الجديد لهذا الجزء من المسيرة العظيمة الهائلة. لقد استيقظت شعوب الشرق، وانتظمت، وتبادلت الاشارات بينها وانطلقت.

حتى الآن كان شعب مصر مايزال غارقا فى الطبقات الدنيا المظلمة للحيوانات، لقد كدح، وجاع، وظل صامتا. والآن، بدأ الخروج من دنيا الحيوانات، لقد اكتسبوا صوتهم واصبحوا متبصرين، ومنظمين. لقد تسلقوا المستوى الثانى، لقد اصبحوا مالكى بضائع، وتجارا، ورجال اعمال صغاراً وتعلموا كيف يقرأون، لقد طردوا الدخلاء الاجانب الذين كانوا يستغلونهم. وبعضهم وصل الى درجات اسمى. انهم يقتلعون كل شيئ، وكل الشعوب الاسيوية والافريقية ادركت معنى اخوتها. وهذه هى اهم الوقائع فى زمننا، ان المسيرة التى يقودونها سوف تسير فيها كل شعوب اوروبا، وامريكا التى عانت واستغلت. ان القارات الخمس وكل الاجناس البيضاء، والصفراء، والسوداء، هى فى حالة ثورة وهياج، وكما هو الحال دائما، هناك عالم جديد، ونظرية جديدة، ونهج مضاد لنهج القادة، يتشكل امام عيونهم، مثل غمامة الدخان خلال النهار ومثل عمود النار فى الليل.

وانا اعبر الصحراء فى سيناء رأيت الخروج الانسانى الجديد. هذه الرؤية، وهذا الانعكاس للصحراء كان ينتصب امامى، مثل كل التجارب المتحركة لرحلتى كلها عبر الشرق.

ذلك الجد الكثير النسل ، النيل ،الفلاحون، اشجار النخيل، مقابر الملوك، الصحراء، اشجار اللوز المزهرة، حصن سانت كاترين المقدس، ذلك الغناء الرهبانى الجليل، الضيافة الودودة، لطف الرهبان وعطفهم قرع الاجراس مع اشراقة النهار، لقد تمتعت بكل هذه الاشياء، وما ازال غير مرتاح.

روح الانسان هى ذلك الدغل الذى يحترق ولكنه لايفنى، لاشيئ يستطيع ان يخمدها، وعقل الانسان مثل تلك «العقرب الصغيرة» للاسطورة الافريقية، سوف تحبين تلك العقرب يامونتيتا، لقد كانت تقفز داخلى طوال الرحلة.

لقد قالت العقرب الصغيرة لى «انا العقرب الصغيرة لا اتوسل ابدا باسم الرب، فعندما اريد ان افعل شيئا ، فانني سافعل ذلك الشيئ بذيلى» .

رقم الايداع ٢٧٧٤/ ١٩٩١

طبعت بمطابع شركة الأمل للطباعة والنشر
«إخوان مورفيتلى سابقا»
تليفون : ٣٩٠٤٠٩٦

هذا الكتاب هو العدد الأول من سلسلة
« كتاب أدب ونقد »
- (فصلية / ٤ مرات فى العام) -
لنشر الإبداعات الفكرية والأدبية
المتميزة ، التى تضيف زاداً حيًا إلى المعرفة
التقدمية والانسانية .
وكتاب « رحلة إلى مصر : الوادى وسيناء »
هو حصاد رحلة طويلة قام بها الكاتب اليونانى
الكبير نيكوس كازانتزاكيس (صاحب زوربا
اليونانى والمسيح يصلب من جديد) مبعوثاً
كمراسل صحفي لإحدى الصحف اليونانية
عام ١٩٢٧ ؛ إلى مجموعة من بلاد المشرق :
تركيا ، سوريا ، فلسطين ، قبرص ،
مصر وسيناء . وجمع كازانتزاكيس حصاد
رحلته فى كتب . وقد ترجم الجزء الخاص
برحلته إلى فلسطين ، وصدر بالأردن ،
وقام بالترجمة نفس المترجمين اللذين
يقدمان لنا هذا الكتاب عن مصر وسيناء :
الشاعر الاردنى محمد الظاهر والكاتبة
منية سمارة .
« رحلة إلى مصر » تجوال شيق
ممتع ، تمتزج فيه الثقافة بالتاريخ ،
والأسطورة بالرؤى ، والواقع بالشعر ،
والخبرة بالحلم . كل ذلك فى استبصار
مرهف بمستقبل المنطقة ودراماها
الكبيرة .

أدب ونقد



٢٥٠ قرشاً

تصميم الغلاف / يوسف شاكر